الخـــادمـة

قصة

اسم المؤلف: گلاويژ
عنوان الكتاب: الخادمة
المترجم: جلال زنگابادي
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: ٢٠١٢
الحقوق محفوظة: دار المدى
تصميم الغلاف: ريم الجندي

دار المدى للثقافة والنشر

سورية: دمشق ص. ب: ٨٢٧٢ أو ٨٣٦٦ ـ تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ ـ ٢٣٢٢٢٧٦ فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box.: 8272 or 7366 - Tel: 2322275 - 232226, Fax: 2322289
www.almadahouse.com Email: al-madahouse@net.sy

بيروت ـ الحمراء ـ شارع ليون ـ بناية منصور ـ الطابق الأول ـ تلفاكس: ٧٥٢٦١٦ ـ ٧٥٢٦١٧
www.daralmada.com Email: info@daralmada.com

بغداد ـ أبو نواس ـ محلة ١٠٢ ـ زقاق ١٣ ـ بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
E-mail:almada112@yahoo.com

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين مادته بطريقة الإسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت «الكترونية» أو «ميكانيكية»، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر ومقدماً.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publisher.

ISBN: 978-2-84306-093-1

گلاويژ

الخـــادمـة

ترجمة: جلال زنگابادي

- هيّا ابنتي استيقظي..انهضي..الوقت متأخر.
تململت(كُـله) وتحوّلت على جنبها الآخر، ولفت على جسمها الغطاء باحكام، وكوّرت نفسها؛ فالجوّ كان بارداً جداً، ونومها حلواً جداً، ولذا عادت إلى النوم في الحال؛ وخالت الصوت والكلام حلماً.
بعد هنيهات، عادت مليحة خان من غسل وجهها، ولمْ تكن قد استعدّت تماماً، وهي مشغولة بكف كمّيها، ودخلت الغرفة مسرعة، وقالت بصوت أعلى:
- واه! ألمْ تستيقظي بعد؟! هيّا استيقظي ابنتي انهضي؛ سيستيقظ الأطفال؛ ليذهبوا إلى المدرسة، فيجب أن نعدّ لهم كلّ شيء، ونشعل النار ليتدفأوا لأن الجوّ بارد جداً.
ثمّ مدّت يدها وأزاحت البطّانيّة من على كُله، وهي تقول:
- هيّا عجّلي هيّا؛ فالوقت متأخر.
ففتحت كُله التعيسة عينيها، وسرعان ما أغمضتهما، لكن مليحة خان لمْ تمهلها، ونادت عليها المرّة تلو الأخرى، ثمّ بصوت تشوبه مسحة غضب:
- ويحها! ما أثقل نومها! منذ متى أنادي عليها سُدى!
إستيقظت كَله وجلست، ومدّت يديها تصفف شعرها، لكن النوم لمْ يغادر عينيها. تثاءبت بضع مرات وهي لما تزل جالسة، وتفتحت عيناها رويداً رويداً، ثمّ جالت بعينيها ناظرة إلى الغرفة، ولمْ تتذكّر لفترة أين هي الآن، وماذا تعمل هنا؟ ولماذا لايدعونها تواصل نومها؟ ثمّ أيّ أطفال؟! وأيّ اشعال نار؟! ومنْ تكون هذه المرأة التي أيقظتها؟!

ظلّت ربّة البيت تأتي وتذهب، وتنهال عليها بنداءاتها؛ حتى وعت كلّه وتذكّرت، انها الآن في البيت الذي رافقت أبيها إليه الليلة البارحة، حيث أضناها السفر بالسيّارة وأصابها الغثيان وتقيّأت كثيراً،وغشي عليها؛ فنامت، ولكنْ أين أبوها؟!

وعادت المرأة تأمرها:

- هيّا ابنتي لملمي فراشك وضعيه في مكان ما، واذهبي واملئي المدافيء بالنفط..هيّا عزيزتي ؛ فقد تأخر الوقت.

ثمّ تقدمّتها ربّة البيت إلى أقصى فناء المنزل الكبير ودلّتها على برميل نفط، وقالت:

- هيّا املئي هاتين المدفأتين بالنفط، وخذيهما إلى تلك الغرفة، ريثما أعود.

كانت ربّة البيت تحمل(رضاعة) وتبدو انّها تأخذها إلى طفلها الرضيع.

فجلست كلّه قرب البرميل والغالون والمدفأتين، وقد دسّت يديها تحت ابطيها، وأسنانها تصطكّ، وصعب عليها رفع غالون النفط، وفتح غطائي وقبيّ المدفأتين؛ لأنها كانت خائرة القوى وبردانة جداً، ثم استطاعت بصعوبة بالغة أن تملأ إحدى المدفأتين بالنفط، وانشغلت بالمدفأة الثانية حتى ملأتها بجهد جهيد، وفلت منها انسكاب شيء من النفط رغماً عنها. ثمّ نهضت ومسكت عروة إحدى المدفأتين(ماركة علاءالدين) واستجمعت قواها، وهي تحاول رفعها ونقلها إلى الغرفة المقصودة، وجاهدت ألاّ تضرب قاعدتها الأرض؛ لأن قامتها هي لمْ تكن تتجاوز مدفأة ونصف! وكانت حافة المدفأة تضرب ساقها وجنبها،

حتى بلغت الغرفة مرهقة، ووضعتها أرضاً. ثمّ جاءت مليحة خان وأوقدتها، وقالت:
- تبّاً! لماذا لمْ تمسحي بوصلة كل هذا النفط المسكوب عليها؟!
وناولتها خرقة وهي تقول:
- إمسحيها بعدما تملئينها بالنفط لاحقاً؛ لكي لاتفوح منها رائحة النفط، ولاتتوسّخ الأفرشة.
فقالت كلّه :
- حسناً..
ونفذت أمرها.
فقالت مليحة خان:
- هيّا اجلبي المدفأة الأخرى هيّا يا عزيزتي
فسارعت كلّه، وجلبت المدفأة الثانية بالطريقة نفسها، لكنّها كانت كئيبة ومكروبة جداً؛ فقد كان ذاك أوّل يوم لها في ذلك البيت، وكانت تجيل عينيها بحثاً عن أبيها، ولاتجرؤ على الكلام والسؤال.
فسألتها ربّة البيت:
- ما خطبك؟ لماذا ترتجفين وترتعشين؟ هل أنت بردانة؟ بعد ذهاب الأطفال إلى المدرسة، سأعطيك ملابس سميكة؛ لأن ملابسك هذه خفيفة.
كانت كلّه تريد الذهاب إلى المرافق والمغاسل؛ لتغسل وجهها؛ طاردة نعاسها الثقيل، لكنها لمْ تجرؤ على السؤال:
- إلى أين أذهب؟ أين التواليت؟
إستيقظ الأطفال والفتيان تباعاً، وكانوا: فتى في الرابعة عشر، فتاة في السادسة عشر، طفلة في العاشرة بعمر كلّه نفسها و طفل في السابعة. وحالما استيقظوا؛ علا لغطهم

وضجيجهم، هذا يصيح و ذاك يغضب يركل حقيبته، والبنت الكبيرة تقول: " لن آكل شيئاً" وأخوها يتعارك قائلاً: " بيضاتي مسلوقة أكثر مما ينبغي" بينما تتوسّل أمهم مهدئة إيّاهم : " أفتديك بروحي" و" سأدبّر الآن لك ما تشتهي" ثمّ استيقظ أبوهم ونهض بسرعة، ومضى يهيّء سيّارته لإيصالهم إلى الدوام، ومن ثمّ يذهب إلى عمله. في حين جحظت عينا كَله المكروبة الحائرة، حيث كانت مكوّرة نفسها واقفة قرب الباب، يمرّ لصقها هذا، ويصفق ذاك الباب قربها، وآخر يصطدم بها وينهرها:

" تنحّي عن الطريق؛ هل أنت عمياء؟ ألا ترين..؟!"

على كلّ حال، تهيّأ الأطفال، وتبعوا أباهم، واستقلّوا السيّارة، ثمّ ذهبوا.

عادت مليحة خان إلى الغرفة، جلست،لتتناول الفطور، وأعطت أيضاً نصيب كَله، وهي تقول:

- هيّا كلي يا عزيزتي؛ لكي ننصرف إلى شغلنا.

كانت كَله ترتجف طوال الوقت، فنادتها مليحة خان:

- إقتربي من المدفأة، وتناولي فطورك.

إلاّ أن كَله كانت في غاية الإحراج، واضرّطت أن تسأل مليحة خان مغلوبة على أمرها:

- أين المرحاض؟!

فأشارت إلى حيث يقع المرحاض، وقالت:

- حافظي على نظافته جيداً، أسكبي الماء، ونظفي نفسك واغسلي يديك جيداً، ثمّ عودي..

فسارعت كَله لتقضي حاجتها. ثمّ غسلت يديها، وعادت لتجلس قرب المدفأة، وسألت بسذاجة الأطفال:

- هل ان أبي مازال نائما وأين ..؟

قضمت مليحة خان لقمتها، وقالت وهي تمضغ اللقمة:
- أبوك؟! لقد ذهب عائداً إلى خانقين، وستبقين هنا، وتصبحين ابنتنا، وتعيشين في هذا المنزل الجميل الطيّب، وسأكسوك بالملابس الجميلة.
فخاطت كلّه الشاي وسألت وهي تغص بالعبرات:
- ومتى يعود أبي؟ هل سيعيش هنا؟
أجابت المرأة:
- سيعود لاحقاً ويزورك. لقد قلت له أن يزورك بين الفينة والفينة ولاينقطع طويلاً عن زيارتك.
ولأن مليحة خان شعرت أن كلّه مكروبة القلب لفراق أبيها وتكاد أن تبكي؛ نظرت إليها بتعاطف، وقالت:
- هنا مكان حلو جداً، سنذهب للتنزه بالسيّارة، سأشتري لك أشياء جميلة، هنا مدينة كبيرة وحلوة جداً.
مدّت كلّه يدها إلى قطعة الرغيف أمامها، بينما كانت عيناها مغرورقتين بالدموع، ولأنها كانت خجلى من أن تجهش بالبكاء؛ فقد حاولت أن تنسى، ومسحت دموع عينيها، وقالت:
- أعرف ان هذه المدينة يسمّونها بغداد.
أرادت مليحة خان أن تفرج عن كربتها، وتنسيها أباها بالكلام الحلو، فقالت:
- أحسنت أيتها البنت الطيّبة! سأحضر لك الآن ملابس جميلة.
ونهضت وجلبت من كنتور الأطفال ثوباً من قماش البازه السميك وبلوزاً وسترة، وساعدتها على أن تلبسها، ثمّ قالت:

- هيّا أنظري نفسك في المرآة لتري كمْ أنت جميلة الآن. وما هذه الملابس؟ سأجلب لك أجمل منها.

فابتهج قلب كلّه قليلاً، وهي تهندم نفسها وتصفف شعرها أمام المرآة.

وعند الظهيرة، عاد البنون والبنات من المدرسة، ودخل كلّ منهم إلى غرفة، ورمى حقيبته ، ثمّ حضروا لتناول الغداء، بينما كانت كلّه تأتي وتذهب منفذة أوامر أمهم بجلب هذا الشيء وذاك، في حين كانت تنظر إلى الأطفال وتبتسم وخاصة في وجه الطفلة التي كانت في عمرها. ولمْ يمض وقت طويل؛ حتى أخذوا يكلمونها ويضحكون معها، وراحت كلّه تتآلف معهم تدريجيّاً. وفي صباح اليوم التالي أصبحت أفضل من الأمس، رغم ثقل النوم المهيمن على عينيها؛ إذ وجب عليها أن تستيقظ كلّ صباح قبل الأطفال بساعة ؛ لتعد مع أمهم المدفأتين والفطور، كما كان عليها أن تنام في الأماسي بعدهم بساعتين.

وذهب الأطفال في ذلك الصباح إلى المدرسة كالعادة، ثمّ نادت أمّهم على كلّه؛ لتعلّمها بعض الأصول، وتخبرها بأسماء ولديها وبنتيها، وكيف تدعوهم وتدعوهن وتخاطبهم وتخاطبهنّ، بأن تقول للبنت الكبيرة(جرا خان)والبنت التي في عمرها(جيمن خان) ولولدها الكبير بختيار (كاكه باشا) ولولدها الذي في السابعة(كاكه آغا) ولها(خانم) ولزوجها(الآغا الكبير) ولأمه(دايه خان).

فتشوّشت كلّه التعيسة، وبسطت كفها اليسرى، وراحت تردد الأسماء مع نفسها همساً وهي تحني بيمناها أصابع يدها اليسرى الواحدة تلو الأخرى:

- (جرا خان)،(كاكه باشا)..لا، لا..الكبير هو (كاكه باشا) والآخر هو (كاكه آغا) و(دايه خان)، لا، ليس كذلك

ثمّ تعيد بسط يدها النحيلة، وتحني أصابعها، وتردّد الأسماء:

- كاكه باشا، كاكه آغا، خانم، الآغا الكبير، جيمن، جرا، لوكس و كَلوب!

لكنّها كانت تغلط ؛ فتعيد الكرّة، لعلّها تخرج من هذا المأزق.

حتى حلول المساء، ردّدت خانم على مسمع كَلّه بضع مرّات:

- لقد صرت ابنتنا منذ الآن.

وراحت تمتدح كتفيها وذراعيها النحيلتين، وتشجعها على القيام بأداء مهمّاتها بأسرع مايمكن، بكنس وتنظيف أمام الباب وخلفه والتواليت والحوش، وأن تجمع الزبل بيديها النحيلتين الواهنتين، وفي ذلك البرد.

وحين كان الليل يحلّ، وحتى وقت متأخر، كان يناديها هذا، وتجرّها تلك ، وكان عليها أن تهزّ مهد الطفل الرضيع، وتعنى به؛ كي تتحمّم الأم، أو تستبدل ملابسها، أو تتناول الطعام، أو تتفرّج على التلفزيون. و طالما كان النوم يغالبها وهي تهز مهد الطفل أو أرجوحته، وتفزّ أحياناً على صوت ارتطام المهد أو الأرجوحة بجبينها. ولمْ تكن تنعم بالنوم إلاّ في وقت متأخر، وتوقظها ربّة البيت مبكّراً كلّ صباح.

ذات ليلة وقد اندسّت في فراشها؛ لتنام، خالجها التفكير في وضعها الجديد، في حين لمْ تفكّر هكذا في الليالي السابقة؛ لغلبة التعب والنعاس عليها، بحيث لم يكن في وسعها أحياناً

أن تهيّء حتى فراشها، بل وتتغطّى؛ فكانت تستفيق بردانة بعد ساعة أو ساعتين. ولكنها في تلك الليلة، كان في وسعها أنْ تفكّر قبيل النوم:

- تكرّر هذه المرأة: "صرت إبنتنا" لكنْ لماذا لاأنام مثل ابنتها في تلك الغرفة وعلى الفراش الوثير؟! لماذا لايرسلونني إلى المدرسة؛ إنْ كنت مثل ابنتها؟ ولماذا يعطونني بقايا طعام أطفالهم؟! والله لاأفهم..

لقد أدركت كلّه رغم صغر سنّها أنّها ليست "إبنتهم " كما تقول هذه المرأة؛ فالفرق بينها وبين أطفالها كالفرق بين الأرض والسّماء!

* * *

ذات مساء بعد العشاء، توزع الأطفال، حيث نام هذا مبكّراً، وانشغل الآخرون بكتابة فروضهم وتحضير دروسهم. وكان الآغا الكبير وخانم(السيّدة) جالسين في الهول المريح الدافيء يتفرّجان على التلفزيون. كانت خانم قد أمرت كلّه بالعناية بطفلها الرضيع، الذي كانت قد نوّمته منذ هنيهات في أرجوحته(مهده الشبيه بالأرجوحة) وكان على كلّه أن تهز الأرجوحة؛ لكي يستغرق في النوم.

كان زوجها متكئاً على أريكة وثيرة وناعمة، وأمامه قدح شراب صغير، وهو يتحدّث لها عن مدى تعبه في هذا اليوم، وكيف تضعضع كلّ جسمه؛ لأنهم كانوا اليوم مخبوصين جداً في دائرتهم؛ حيث زارهم وفد ضيف من بضعة أفراد، وإنه سيتأخر في العودة مساء غد؛ لأنه سيرافق الوفد الضيف المعزوم على العشاء في فندق بغداد:

- وهم أيضاً وجّهوا إلينا دعوة، بأن يزورهم وفد لنا بعد أربعة شهور..

وعندها نهض، ثمّ جلس وقال:

- ستكون سفرة جميلة!

إنتفضت زوجته وقالت بحماس:

- والله لن أدعك تذهب بدوني!

فارتشف الرجل رشفة من الشراب، وعلّق ضاحكاً:

- وما شأنك بهذا يا بنت؟! الوفد رسمي حكومي وكلّه من الرجال.

فكوّرت المرأة قبضتها وضربته بضع ضربات خفيفة، وقالت:

- لا، لن تأكله فهو مرّ! أتراني أقف مكتوفة اليدين وأنت تذهب وحدك إلى روما؟!

تصاعدت قهقهة زوجها،وقال:

- ليس الأمر كما تشائين؛ فأنا مضطرّ إلى الذهاب.

واتكأ على الوسادة، وقال:

- سأجلب لك أحذية وحقيبة جميلة بدلاً عن مجيئك.

وبينما كانا في ذلك الجدال، غيّر الزوج مجرى الحديث فجأة، وقال:

- دعك من ذاك الآن، الله كريم حتى أربعة شهور مقبلة، هيّا حدّثيني عن هذه البنت، كيف هي؟ وهل تنفعك في شيء؟!

كانت المرأة تقشّر برتقالة، فأجابت:

- والله لا أدري ماذا أقول؟ ليست هي كما تحدّث أبوها عنها؛ إذ عليّ أن أكرّر عليها دوماً ، وطالما أقول لها إكنسي هذه الغرفة، وإذا بي حين ألتفت أجدها تلعب مع

الأطفال، أو مشغولة بشيء في يدها، والمكنسة مطروحة هناك.

فقهقه زوجها، وقال:

- يا بنت! لأن المسكينة مازالت طفلة صغيرة؛ جازى الله أباها!

ومدّ يده إلى قدح المشروب، وأضاف:

- ثمّ إنّ أمّها ميّتة في صغرها؛ فاضطرّ أبوها إلى أن يودعها كلّ فترة في بيت أحد الأقرباء، ولأنّها كبرت ، فلم يعد الأقرباء يحبّذون وجودها عندهم، وقالوا له إنها تذهب إلى هنا وهناك، ونخشى أن يصيبها مكروه، وتقع علينا المسؤوليّة؛ فاعذرنا من إيوائها. وكيف يتصرّف أبوها؟ حيث لايمكنه أن يتفرّغ لرعايتها، فكيف يعيش؟ إن عليه أن يذهب إلى كسب أو عمل ما؛ فهو فقير وعليه أن يدبّر لقمة العيش يوماً بعد يوم. ولأني كنت قد أوصيت الكثيرين لإيجاد خادمة مناسبة؛ وجدها العم غفور عند ذهابه إلى خانقبن، حيث سمع من فرّاشه بذلك الرجل وابنته، ففاتح أباها، وألحّ عليه؛ حتى جلبها إلينا.

وضع الآغا فستقة في فمه، ثمّ قال:

- هذه الطفلة أنيسة جيّدة لك ويمكن أن تخفف عنك بعض العبء. حتى أجلب الخادمة ؛ فقد ثقبت رأس(شفه) بكثرة إلحاحي وتكراري لجلبها، وهو يعدني: " والله لو انتزعتها عنوة من ذلك البيت؛ سأجلبها لكم. لكنها استلمت سلفاً أجورها لبضعة شهور"

فسألت مليحة خان بدلال:

- حسناً..كم هو المبلغ؛ لنعيده بأنفسنا إلى ذلك البيت؟

فأجاب زوجها:

- ماذا تقولين؟ وهل تتصوّرين انني لم أقلْ له هكذا؟! لكن شفه يقول : " عيب؛ لأن ذاك البيت من معارفنا ؛ لئلاّ يعرفوا بانتزاعها منهم" وضحك ، ثم قال:
- لاداعي لذلك..إحسبيها في بيتنا. والله ان(شفه) في مقدوره أن يؤلب أمّه على أبيه؛ من أجل بضعة قروش؛ فكيف إذا كنت قد وعدته بخمسين ديناراً وبذلة جديدة؟!

* * *

بعد أسبوع، كانت كَلّه تكاد ألاّ تعرف نفسها بهيئتها الجديدة: قصّة شعرها الولاديّة، زوج من الأقراط بحجم العدس في أذنيها، ثوب نظيف، وجاكيت سميك من الصوف متهدّل على كتفيها، كانت تبدو فيه كالفأرة، ويبدو انه لخانم وقد كفت كمّيها..واستحالت كَلّه كالكرة المتداولة بين أهل البيت؛ يأتي بها هذا، وتأخذها تلك. تصيحها هذه، ويصرخ عليها ذاك!

ذات صباح، بعد ذهاب الأطفال إلى المدرسة، نادت خانم كَلّه التعيسة ، وكلّفتها ببعض الأشغال، وهي تحثها بـ "أحسنت" و" عزيزتي" فسارعت كَلّه ونفذت جميع توجيهات خانم، ثمَّ عادت لتتناول فطورها، حيث لمْ تنته منه خانم أيضاً ، وهي ترتشف الشاي بين الفينة والفينة، بينما تقلّب صفحات مجلّة عربيّة. ووصلت كَلّه إلى خانم وقالت:

- أنهيت الشغلات يا خانم.

كانت يدا كَلّه محمرّتين من شدّة البرد، ولايتوقف سيل مخاطها،الذي كانت تمسحه بمنديل سبق أن أعطته إيّاها خانم، ونبّهتها ألاّ تمسح مخاطها بكمّها.

ودون أن ترفع خانم رأسها عن المجلّة، قالت:

- ها أنهيت.....؟ أحسنت. تعالي اقتربي من المدفأة.
أحسّت خانم أن كلّه ترتجف من البرد؛ لأنها كانت في الخارج تكنس أمام بابهم، فقال:
- واه! يا بنيّتي انت بردانة جداً!
إقتربت كلّه من المدفأة، وبسطت كفيها وعرضتهما للظى لهيبها؛ لتتدفأ.
رمت خانم المجلة من يديها،وواجهت كلّه قائلة:
- سأذهب اليوم إلى(قبول) أتعرفين ما هو(القبول)؟
ضحكت كلّه بسذاجة طفولية، وغطّت فمها، ثمّ ضحكت بصوت أعلى، وأجابت:
- لاأعرف ما هو، وماذا حدث!
إحتدمت خانم لضحكة كلّه التي تجهل ما هو(القبول) وألقت عليها نظرة،وقالت:
- القبول إسم زيارة يوميّة لهذا البيت وذاك البيت على التوالي، فاليوم مثلاً سنزور أحد البيوت، وغداً سنزور بيتاً آخر، وبعد غد ستجتمع النساء ويزرن بيتنا.
فقالت كلّه:
- والله هذا حلو.
رغم انها لم تفهم جيداً كيف تتبادل النساء هذه الزيارة وما هي أصولها.
قضت خانم ذاك النهار كله بالتحمّم وتصفيف شعرها، والإنشغال بالمنقاش والوقوف أمام المرآة. وفي حدود الساعة الخامسة عصراً، إرتدت ملابسها الكرديّة المزركشة اللمّاعة، وتزيّنت بحليّ ذهبيّة كثيرة، ونصحت بنيها وبناتها، وأوصت ابنتها الكبيرة بالإشراف على البقيّة. وكذلك ذكّرهم أبوهم بتحضير دروسهم، وهدّدهم بالويل

والثبور إذا لمْ يتصرّفوا تصرّف العقلاء. ثمّ تهيّأ واستقلّ سيّارته، وجلست جنبه خانم،ثمّ شغّلها وذهبا إلى (بغداد الجديدة) وهما يتجاذبان أطراف الحديث ويتضاحكان، فقال:

- لاتنسي أن تجاملي (أم باسل) كثيراً وأن توجهي إليها الدعوة لزيارتنا يوم الجمعة مع(أبي باسل) إنْ أمكن ذلك؛ لعلّها تقترب منك بعون الله.

ثمّ أكمل حديثه بشوق وحماس:

- أتدرين ما الذي سيحصل؛ إذا ما اجتذبت أم باسل إليك؟ سيدخل أبو باسل في جيبي! فأنت لاتعرفين كمْ هي متسلّطة عليه!

وقهقه عالياً، وقال:

- يا للعجب! لا أحد في الوزارة يجهل ذلك؛ فإذا طلب أحدهم إجازة؛ يكفي أن يقدّم هديّة لأم باسل؛ ليوافق عليه أبو باسل فوراً.

وأدار رأسه قائلاً:

- بل، تنفذ به ترفيع هذا أو ذاك.

فقالت متدللة:

- ولا يهمّك؛ دعْ لي أم باسل، ولكنْ عليك دفع التكاليف...!

فقال:

- يا لعقلك القاصر! كلّ هذا من أجلك، وإلاّ ماذا؟!

فتضاحكا كثيراً، ثم تحادثا في أمور أخرى، حتى بلغا منزل صاحبة القبول، فدخلته خانم، فوجدت غرفة الإستقبال تعجّ بالضيفات المرتديّات الملابس الكرديّة والأوربية الحديثة، وكان لغط النسوة مسموعاً في مدخل الزقاق؛ لإرتفاع أصواتهن وضحكاتهنّ.

كانت النسوة في غاية التمكيج، فقدكان بعضهن آتٍ للتو من صالونات الحلاقة والتجميل، حيث دفعن مبالغ كبيرة مقابل تقبيحهنّ ! لأنّهنّ كنّ أجمل بالجمال الطبيعي لشعورهنّ ووجوههنّ، بينما صار شعر هذه يشبه عرزالاً وشعر تلك يشبه قالب كيك!

سلّمت مليحة خان عليهنّ؛ فرددن التحيّة بحرارة، ثم اختارت مكاناً وجلست، وشرعت بتوزيع الإبتسامات، واشتركت في الأحاديث، الطافحة بالترّهات والرياء والنفاق والتفاخر والزهو؛ إنْ تنصّتَ لها إمرؤ، ودقق في محتواها!

طالما جالت مليحة خان بعينيها باحثة عن(أم باسل) فلم تجدها؛ فسألت غير مرّة عنها من المستضيفة، فأجابتها:

" والله كان المفروض بها أن تأتي، لكنها لم تظهر لحدّ الآن"

على كلّ حال، انخرطت مليحة خان في جمهرة النساء المتجاذبات أطراف الأحاديث، بينما يرتشفن الشاي، ويتناولن الحلويات والكليجه، ويبتلعن لُقم الشفته والكباب، ويأكلن أنواعاً من الفاكهة، ويتناولن الكرزات الموضوعة أمامهنّ. كان بعضهنّ يتحدّث عن خدّامهنّ و خادماتهنّ، وبعضهنّ عن أحوال بيوتهنّ ومشاغلهنّ، فانبرت خانم تتحدّث عن كَله المسكينة، التي جيء بها منذ عشرة أيّام، ولابأس بها رغم انّها لم تتعلّم أداء المهمّات بعد، وسردت بعض هفواتها لصويحباتها كيف لايمرّ يوم إلاّ وقد وقع من يدها ماعون أو قدح فانكسر، بينما كانت السامعات يضحكن مقهقهات ويقعن على ظهورهن، بل يسكبن الزيت

على نار خانم بتعليقاتهنّ الخبيثة واللئيمة ؛ ليزدن اللهيب الحارق يديّ كلّه الشقيّة!

* * *

أمّا الأطفال فحالما استقل أبوهم السيّارة وجلست أمهم جنبه، وانطلقت بهما؛ انصرفوا فوراً لألعابهم، حيث همست جيمن لكلّه أن تجلب أوراق البباز،التي كانت قد أخفتها تحت منامها، ثمّ همست في أذنها ثانية أن تذهبا إلى إحدى الغرف وحدهما، حيث بدأتا بتوزيع الأوراق واللعب، وهما تكركران وتضحكان...فلا تذكّرت جيمن دروسها، ولا تذكّرت كلّه توصيات خانم. ولم يمر على بدء لعبهما غير دقائق، وإذا بالولد الذي في السابعة يدخل عليهما ويقول: " أنا ألعب أيضاً" فنهرته أخته ودفعته دفعة قويّة، وصاحت في وجهه: " إذهبْ..ولّ" فهجم الولد على الأوراق، فعالجته أخته بالصفع واللطم، فهاجم كلّه البريئة، والتي كان شعرها قصيراً من حسن الحظ ، وإلاّ كان يجتث شعرها! فتعالى لغطهما وصياحهما. وأخذ الولد يبكي، وكذلك كلّه، والبنت تعيط.

وكانت البنت الكبيرة قد سارعت، فور خروج أبويها، تهاتف إحدى صديقاتها، وإذا بكاكه باشا يصيح في وجهها:

ـ جرا ماذا دها الأطفال، فهم يعيطون؟! يبدو انهم ملّخوا بعضهم البعض! أسرعي إليهم.

فوضعت راحتها على سمّاعة التلفون، وقالت:

ـ ولماذا لاتذهب أنت ؟ ما شغلك؟!

فصرخ في وجهها:

ـ لأنني مشغول باحضار دروسي، وأنت تتكلّمين منذ ساعة بالتلفون!

لمْ تهتم أخته بكلامه، وكانت من آن لآخر تسدّ السمّاعة براحة يدها وتقول: " إذهب أنت"
فاضطرّ كاكه باشا واسمه(بختيار) أن يرمي ويبعثر كتبه ودفاتره غضباً، ويهرع إلى الأطفال صائحاً: " ما هذا اللغط والفوضى؟!" وسبّ أخته جرا خان بضع مسبّات فاحشة ! وسارع بفكّ اشتباكات أخيه وأخته، وهو يصرخ في وجهيهما:
- ماذا دهاكما؟ ماذا تفعلان؟ لماذا تتعاركان؟ ما هذه الأوراق ومن أين جاءت؟!
فأجابت:
- كانت لدى كَلَه. وهي لنا!
كانت كَلَه تبكي قرب الشبّاك وشفتها تنزف دماً من تمليخ كاكه آغا، وتمسح الدم بكمّ ثوبها، ويعلو بكاؤها وعياطها ؛ كلّما رأت الدم النازف..
ثمّ اقتاد كاكه باشا أخته وأخاه إلى غرفته، حيث مازالت جرا خان تتحدّث في التلفون. فما كان من بختيار المستشيط غضباً إلاّ أن ينتزع سمّاعة التلفون من يدها ويصرخ في وجهها: " كافي..ألمْ تشبعي؟!" فصفعته بكلّ ماعندها من قوّة؛ فتشابكا وتضاربا وعلا صراخهما ؛ فاستيقظ الطفل الرضيع؛ فعافت جرا خان أخاها وانهالت ضرباً على كَلَه الشقيّة، وهي تصيح في وجهها:
- قصف الله عمرك..أما تسمعينه؟!
فسارعت كَلَه لتهدّيء الطفل بهزّ مهده، وتمسح بكمّها دمعها الهتون.
في حدود السّاعة الثانية عشرة ليلاً، عاد الأبوان إلى البيت، ودخلا الغرف، فشاهدا الفوضى ضاربة بأطنابها:

الدفاتر والكتب المبعثرة، أوراق البباز، رضاعة الطفل وحظائنه وبضعة مواعين وأقداح هنا وهناك!
كان كاكه آغا و جيمن المتشاجران نائمين، وكانت كله نائمة قرب مهد الطفل الرضيع النائم أيضاً. وكان الولد الكبير والبنت الكبرى يتفرّجان على التلفزيون، فسارعا باستقبال أبويهما بوجهين بشوشين!
وما إن شاهدت خانم الفوضى الهائلة؛ حتى أخذت تدمدم وترعد وتزبد:
- ماهذا؟! ماذا فعلتم بالبيت؟! أين كله الرعناء؟ أنظروا كيف انقلب البيت عاليه سافله!
ودخلت الغرفة التي يوجد فيها التلفزيون، وواجهت ابنتها الكبرى وابنها الأكبر:
- ماشاء الله! على تطبيقكما لنصائحنا! وأين كله؟ لاأطال الله عمرها!
كانت البنت شبه مغمضة يغالبها النعاس، ومع ذلك لاتكفّ عن مشاهدة الفيلم، وكان أخوها أيضاً نعسان. وخفضت الأم صوتها قليلاً؛ لئلاّ يستيقظ الطفل الرضيع، وواجهت زوجها وهي تقول:
- أترى ما حصل؟! أيّ حال هذا؟! إمّا أن أنحبس ولا أذهب إلى أيّ مكان، وامّا أن يدمّروا البيت هكذا!
فسحبها زوجها من يدها وقال:
- لاتزعجي نفسك، والله ستكون المرأة الشغالة عندك مساء غد.
فقالت:
- أيّ امرأة! ألمْ تقلْ انّها قبضت من تلك العائلة أجور ستة- سبعة شهور؟!

فقال زوجها:
- لاعليك أنت، بل عليّ أن أجلب تلك المرأة غداً.
فقالت:
- يا رب يحصل ما تقوله.
وحالما إلتفتت، كان الولد والبنت قد ذهبا للنوم، وكانا نعسانين حدّ العجز عن الكلام. ثمّ ذهبت المرأة وسحبت كَلَه من يدها، وهي تقول بهدوء:
- انهضي انهضي إذهبي وافطسي في مكانك. ما هذه الفوضى في البيت؟! ألمْ أقلْ لك انتبهي واعتني بكل شيء؟!
لكنّ كَلَه لمْ تستفقْ، وكانت كمن في غيبوبة النومة السّابعة. فجرّتها المرأة جرّاً إلى مكانها؛ فأفاقت قليلاً، فخاطبتها المرأة: " هيّا افرشي فراشك ونامي" ولأن كَلَه كانت نعسانة جداً وبردانة؛ فقد سحبت الفراش بيد، وهي شبه مغمضة، وألقت نفسها عليه، وتكوّرت وغطّت رأسها بالبطّانية، وسرعان ما غطّت في النوم.
ذهبت المرأة تستبدل ملابسها، فاقترب زوجها منها وقال:
- لاتهتمّي دعي البيت على ما عليه، فغداً سيُنَظف ويُرَتب، ولاتزعجي نفسك، بل تعالي إحكي لي عن القبول.
قالت مليحة خان:
- لامزاج لي بعدما حصل، والوقت متأخر، بل أنا دائخة من فرط الكلام هناك، وأريد أن أنام.
وأحنت رأسها ثانية وهي تنظر إلى فوضى الهول والغرف، فسحبها زوجها من يدها وقال:
- قسماً برأس بختيار والأطفال لن أدعك تنامين حتى تحكي لي، وسأحدّثك بعدها بما يسرّ قلبك كثيراً.

فقالت مليحة خان بعد تدلل وتغنّج:
- حسناً لنذهب إلى غرفة الإستقبال؛ لئلاّ يستيقظ على ضحكاتنا(آسو) الحبيب.
فعصر زوجها يدها مبتهجاً وقال:
- يبدو أن معك كلاماً سارّاً
فشبّكا يديهما، وذهبا لإلقاء نظرة على الأطفال النائمين، وغطّياهم جيداً، ثم ذهبا إلى غرفة الإستقبال، حيث استلقت مليحة خان على أريكة، وجلس زوجها جنبها، وقبّلها بضع قبل، وقال:
- هيّا احكي لأعرف ماذا فعلت أم باسل؟
فضحكت مليحة خان وقالت:
- والله فقدنا الأمل في مجيئها، ولمْ تحضر إلاّ في نصف الساعة الأخيرة؛ ولذا فقد مدّت الكثيرات جلستهنّ من أجلها، وكان عذرها كما بيّنت: " كنت مشغولة كثيراً، لاسيّما وقد جاءنا ضيوف من (الحلّة) يصطحبون مريضاً. وكدت ألاّ أحضر، لكنني لحسن الحظ استطعت من بعد "
فمسّد زوجها رأسها ومرّر يده على وجهها، وسأل:
- حسناً..وماذا فعلت أنت؟
فنهضت ثم جلست وقالت:
- سألتها باهتمام وحرارة عن أطفالها، فحدثتني ببشاشة ، ولمحتها تسأل بدرية خان عنّي:" مَنْ هذه..؟" فأجابتها:" هي زوجة مهندس الأشغال، وهما يودّانك ويبجّلانك كثيراً"
فقهقه زوجها بهدوء وكان اسمه عثمان، فسدّت مليحة خان فمه يدها، وقالت:
- إخفض صوتك؛ لئلاّ يجفل آسو العزيز ويستيقظ.

فقبّل زوجها يدها الموضوعة على فمه، وسألها:
- كيف اخترت بدرية خان للتقريب بينكما يا شيطانة؟
فأجابت:
- كيف لا أختارها، وهي ذات علاقة حميمة معها؟
فقال عثمان آغا:
- هيّا هيّا بالله اكملي..
فتثاءبت مليحة خان وقالت:
- ثمّ دعتني أم باسل لأجلس قربها، وكانت طوال الوقت تتمعّن في ملابسي ومجوهراتي، وتحدثنا كثيراً، ثمّ حدثتها عن الأزياء الكرديّة، وقلت لها: " ليتك تشرفيننا بزيارة ذات يوم ، لأضع بين يديك أزيائي الكرديّة كلها؛ لتختاري منها مايعجبك ومبروك عليك "فقالت: " والله أودّ ذلك، لكنني الآن منشغلة جداً. وبعد مغادرة أقربائنا الضيوف ، سنتهاتف بالتلفون"
ثمّ ضحكت مليحة وقالت:
- طبعاً لن أعرض عليها ملابسي التي أحبّها.
فقال زوجها:
- ولكن كيف..؟
فأجابته:
- ومن أين لها أن تفرق بين الأزياء الكرديّة الجيّدة والرديئة؟ المهم هو البريق واللمعان!
فأراد الزوج أن يتكلّم، فقاطعته:
- كفّ عن تعليمي العلم والمعرفة؛ لأنني أعي وأعرف ما أفعل..
فاغتبط زوجها وقال:

- إذنْ كـلّ شـيء علـى مـايرام...ستمـشي أمورنـا كمـا نهوى..منذ سنة وأنا أكرر عليك..
فقالت خانم:
- وكيف كان في وسعي؟ وهل يجوز أن أهجم عليها دفعة واحدة بدون أيّ معرفة؟ لايمكن هذا إلاّ رويداً رويداً.
ثم ضحكت وأضافت:
- وهي متغطرسة وعبوسة غير منفتحة.
فقال الزوج:
- حسناً..ومن كانت هناك أيضاً؟
فأجابت خانم وهي على وشك النهوض:
- أوهو..! كثيرات كرديّات وعربيّات...
ثمّ واجهت زوجها ومسكت يده وقالت:
- تعال لأحدثك عن زوجة بابكر حسن آغا، التي لمْ أتعرف عليها إلاّ بعد ترحيبها بي!
وانتصبت مليحة خان وتساءلت:
- أتعرف ما حلّ بها؟!
فسأل زوجها:
- ماذا؟ وهل ترتاد أيضاً تلك الأمكنة؟!
فنفضت يدها وقالت:
- هَيْ هَيْ ! كانت النسوة كافة يتحلّقنها كأنهن يعرفنها منذ ألف سنة!
ووضعت يدها على فمها وضحكت، وقالت:
- ولغتها العربيّة مكسّرة. إني لمتعجبّة من شغل الله! كانت ملابسها من أغلى الأقمشة الفرنسيّة وتبرق وتلمع...أمّا الذهب واللؤلؤ و..... فلاتسلني...
وهزت مليحة خان رأسها بقوة وقالت:

- وبعد..لاأدري عمّ أحدثك؟ لمْ يسعني إلاّ القول:" سبحان الله مغيّر الأحوال كيف تغيّرت؟!

فقال زوجها:

- سمعت أنا أيضاً قبل فترة أنهم أثروا كثيراً؛ فتعجبت واستغربت..

قالت المرأة:

- حسناً تفضلْ وقلْ لي كيف اغتنوا هكذا؟! فقد كانوا قبل ثلاث - أربع سنين مجربّين! ألا تتذكر بيتهم حين زرناهم؟ ثلاثة كراسي نايلون أخضر وأحمر وأصفر، ونصف البيت مفروش بالكنابير، ماعدا المضيف المفروش بسجادة لابأس بها، وظلوا يتحدثون لنا حتى مغادرتنا عن الإفلاس والديون، وكدت ألاّ أشرب حتى شايهم من فرط تشكّيهم من العوز والفاقة!

فعلّق زوجها قائلاً:

- إنّها الدنيا و دوران الفلك، وليس الناس ثيراناً؛ ليبقوا في الجلود نفسها !

فانتفضت خانم وقالت:

- طيّب..ولماذا هناك بؤساء يكدحون ليل نهار طوال السنة ولايشبعون حتى خبزاً يابساً؟! ولماذا ثمة موظفون ذوو خدمة طويلة باقون على حالهم لاتكفيهم رواتبهم؟ ههْ ! لماذا بقي هؤلاء في جلودهم نفسها؟!

أخفضت خانم صوتها، ورفعت إصبعها وقالت:

- قسماً بالنبيّ محمد (ص) إن من يستبدلون جلودهم، ليسوا إلاّ موظفين مختلسين ، أو كسبة محتالين نصّابين ومهرّبي سلاح ومخدرات !

فقال زوجها:

- لاتحسديهم..وأنت هل كان لديك قبل أربع سنين هذا القدر من الذهب والأثاث؟ إحمدي الله. المهم الصحة والعافية والسّلامة، فنحن أيضاً لدينا مايكفينا وأكثر.
فاحمرّت خانم وكادت تستشيط غضباً، وقالت:
- أيّ ذهب هذا؟! نصفه لي أصلاً ونصفه من أمّي منذ القدم، والناس يعرفون كمْ كان لديها من الذهب والأملاك والقرى.
فهز زوجها رأسه وقال مع نفسه: " ماذا أقول؟ لا أجرؤ على القول أن أباك أيضاً حصل على الذهب والقرى والأملاك من سلب ونهب القرويين المسحوقين وامتصاص دمائهم احتيالاً ونصباً وجوراً!" ونهض على قدميه، وقال:
- لاتهتمّي..هلمّي نذهب للنوم لأن الوقت متأخر.
ومسكا يديّ بعضهما وسارا إلى غرفة النوم. وبينما كان يسيران، همس الزوج في أذن زوجته:
- بروح أبيك حدّثيني عن زوجة مدير الشرطة.
وضحك.
فقالت خانم بهدوء:
- الحديث عنها يطول، فدعه للغد.
فقال زوجها:
- لكنني حلفتك ..فقولي شيئاً ما.
فغطّت فمها وضحكت ثم قالت:
- مازالت كالماضي تتحدث عن مرضها وعمليّتها الجراحيّة، وكيف أن زوجها قد حبّل خادمتها حتى خروجها من المستشفى!
فقال زوجها:
- يا له من عديم شرف! هل ثمة مثل هذا العاهر؟!

فأجابت:
- وكيف لايوجد؟ والله أعلم.
ثمّ أضافت:
- كانت النسوة يشجعنها على الكلام؛ لكي يتفكهن عليها، بينما يتظاهرن بالتأثر لحالها، ويستهزئن بعقلها، كان وجهها يحمرّ ويزرق ويسيل العرق على وجهها في هذا البرد، وهي تصيح : " عيني(نسرين) عيني(أم بختيار) لقد فعل الكافر هكذا " وكانت تتحدث بغضب وتري غرزات عمليّة بطنها..ثمّ كيف ندم زوجها وتهافت على يديها وقدميها، وكيف طردته، وكيف طرد زوجها الخادمة..ثمّ سألتها النسوة: " وما مصير الخادمة الحبلى؟ والطفل البريء؟!" فأجابت : " غادرت، وقامت سرّاً بعمليّة إجهاض "

* * *

في اليوم التالي قرب المساء، رنّ جرس الباب؛ فهبّت كلّه راكضة، وفتحت الباب، فدخل رجل وامرأة. فنهضت مليحة خان لإستقبالهما:
- مرحباً بك يا كاكه شفه
ورحبت بحرارة بالمرأة. فضحك شفه وقال:
- سأنام الليلة قرير العين. فلتكفّا عني؛ فها هي(شكريّة)تك وجال بعينيه، ثمّ سأل:
- وأين كاك عثمان؟ أليس في البيت؟
فأجابته مليحة خان:
- طالما إنتظرك ، فتأخرت ولمْ تأت..
فقال شفه:
- إذنْ فلأذهب الآن. سأمرّ عليه غداً في الوزارة .

وتوجّه إلى كَله وقال:
- هاتي لي ماء شرب يابنيّة فأنا على عجل.
فقالت خانم:
- والله لن تذهب إلاّ بعد شرب الشاي.
كانت شكرية جالسة وقد وضعت عباءتها على كتفها، وجالت بعينيها هنا وهناك ، ثمّ توجهت إلى خانم وقالت مبتسمة:
- وا فرحي؛ أنتم أكراد وتتحدثون بالكرديّة..فقد كاد قلبي ينفجر في بيت العرب.
فضحكت كَله بصوت عال وقالت:
- بيت العرب ليس حلواً.
فحدّجتها خانم بنظرة شزراء تعني (لاتتكلمي كثيراً واسكتي) ثمّ شرب شفه الشاي وودعهم وغادر.
وبعدها نهضت مليحة خان وقالت للمرأة أن تحمل عباءتها، وتوجّهت إلى كَله قائلة:
- رافقيها إلى غرفتكما.
فابتهجت كَله وسارعت إلى حمل صرّة المرأة، وحملت هي حقيبتها، وسارتا إلى الغرفة، حيث تخلّت عن عباءتها، ورتبت هندامها قليلاً. توجّهت كَله إلى شكرية متسائلة:
- أتكونين بعد الآن في هذه الغرفة؟ ما أحلى أن تنامي قربي بعد الآن!
وانفتح قلبها لها خلال هنيهات وسارعت تروي لها:
- أنظري هذا فراشي، واشترت خانم لي هذه الأقراط
وهي تؤشر إلى أذنيها، وشوّقتها كيساً قرب الفراش وأخرجت منه ثوبين وقالت:

- هذا الثوب للسيّدة الصغيرة، وهذا الآخر إشترته السيّدة الكبيرة لي.
وهمّت أن تشوّفها أشياء أخرى، فضحكت شكرية وقالت:
- حسناً حسناً ..ضمّي الآن هذه الأشياء، سأراها في الليل حين نأتي لننام، أمّا الآن لنذهب إلى السيّدة.
وسارت شكرية تدلها كلّه..كانت السيّدة مسرورة، لكنها كانت أيضاً متشائمة قليلاً من قيافة شكرية، التي كانت ملابسها كلها أسود اللون، فقالت مع نفسها:
- تبدو هذه المرأة فقيرة ومفجوعة بموت عزيز لها، حتى طرحة رأسها سوداء! منظرها يقبض قلبي.
سلّمت شكرية على السيّدة، التي دعتها إلى الجلوس. وبعد هنيهات تساءلت السيّدة مبدية قليلاً من التأثر:
- لاسامح الله هل مات لك أحد؛ فارتديت هذه الملابس السوداء؟! البقاء في حياتك، والرحمة على روحه..هذه هي سنّة الحياة الدنيا.. جميعنا سنموت.
فضحكت شكرية مقهقهة؛ بحيث أجفلت السيّدة وقالت :
- حمداً لله لمْ يمت لي أحد، لكنني أحب اللون الأسود، وكل ملابسي سوداء.
فتساءلت السيّدة بذهول:
- لماذا؟! فأنت شابة وجميلة فلمَ تفعلين هكذا بنفسك منذ الآن؟
فضحكت شكرية مرة أخرى وقالت:
- والله ياسيّدتي أحب هذه الملابس.
فهزت السيّدة كتفها وقالت:
- حسناً..لتكن طرحة رأسك على الأقل بلون آخر.
فمدت شكرية يدها ولمست طرحتها وضحكت وقالت:

- تروق لي هذه الطرحة.
كان عمرشكرية نحو خمس وثلاثين سنة، وكانت بيضاء البشرة، لمْ تكن بدينة قبيحة، بل كانت مكتنزة نوعمّا، وكان وجهها أبيض مليحاً، بعينين سوداوين، وشعرها أسود سرحاً، زادته الحنّاء جمالاً؛ وهو يبدو بلونه الباذنجاني.
كانت شكريّة خفيفة الدم محبوبة. وتساءلت السيّدة:
- وزوجك؟ ألست متزوجة؟
فضحكت شكرية مجيبة:
- أف! كسر الله رقبته!حمداً لله طلّقني فتخلّصت منه.
فتساءلت السيّدة:
- بعد الشرّ عنك ..لماذا؟ ألمْ تنجبي منه؟
عدّلت شكرية طرحتها بيدها وأجابت:
- والله يا سيّدة كان زوجي جنديّاً، وكنت أعيش مع والدته..وكلما عاد ولدها في المساء، كانت تحدثه عن كلّ حركاتي وسكناتي، ماذا عملت، أين ذهبت،وهكذا ضحكت.
وسكتت شكرية قليلاً، ثم استرسلت:
- في الحقيقة يا سيّدتي كنا نسكن مستأجرين غرفة وطارمه في دار كبيرة، مع عائلتين أخريين كان زوجاهما أيضاً عسكريين، وعائلة أخرى كان الزوج يعمل خبازاً،فضلاً عن صاحبة المنزل التي تسكن غرفة وطارمه ، وكانت عجوز وابنها بائع خضروات عنده دكان. كان يجلب الكثير من الخضروات كلّ مساء لأمه التي كانت توزع أغلبها علينا. ومابرحت حماتي تحرّض ولدها ضدي على انني أتغازل مع ابن العجوز والرجال الآخرين؛ فكان ينهال عليّ ضرباً بنطاقه العسكريّ السميك، فيتورّم ويزرقّ جسمي من ضربه المبرّح، وأخيراً طلّقني..وحسناً فعل.

وحمدت الله، وأضافت:
- والأحسن انني لمْ أجب منه.
وعلّقت السيّدة معزيّة إيّاها:
- تبّاً لتلك العجوز! ألمْ تخش الله لبهتانها عليك؟! ثمّ ألمْ يحقق ابنها لمعرفة الحقيقة؟ ليعرف هل هذا صحيح أم كذب، أو من خيال أمّه؟! كيف اتخذ هكذا قرار؟! إيه... الدنيا تحوي ألف صنف من البشر. لاتهتمّي لاتنزعجي..عافاك الله..سيعوّضك الله.
فقالت شكريّة:
- سلم رأسك سيّدي..لست متأثرة، بل أنا الآن أسعد حالاً.

* * *

عاد الآغا الكبير مساءً، وتساءل من بعد بوجه بشوش:
- هل جاءتك المرأة ؟
أجابته مليحة خان:
- أجل.. حمداً لله..إن شاء الله سأرتاح بوجود هذه المرأة العريضة الكتفين والقويّة الساعدين..والتوكّل على الله.
ثمّ ذهب زوجها مرحباً بالخادمة وقال:
- مرحباً بك..هذا بيت أخيك الكبير، و مليحة أختك. وستكونين عندنا مرتاحة إن شاءالله.
فشكرته شكرية، وانصرفت إلى شغلها، تتبعها كلّه هنا وهناك فرحانة، وهي تحدثها وتعرفها إلى البنين والبنات:
- هذا كاكه آغا. والآخر كاكه باشا..هذه جرا خان وتلك جيمن خان والرضيع آسو.
فأدركت شكريّة أن كلّه تحسبها من ذويها وملاذها، ولذا فتحت قلبها الصغير لها، وفي جعبتها الكثير؛ فأبدت لها التعاطف والشفقة.

سحب الزوج زوجته من يدها وأخذها إلى غرفة وسألها:
- كيف ترينها؟ هل تروق لك قيافتها؟
فأجابت:
- والله جيدة جداً..ماعدا زيّها الأسود الذي يقبض قلبي.
فعلّق الزوج:
- منكوبة ؛ تلبس الحداد على عزيز لها.
فقالت بهدوء وابتسام:
- أيّ موت؟! تقول انّها تحب اللون الأسود..وأيّ أسود بلا وردة أو خط..أسود قاتم وشامل.
ونظرت إلى زوجها وقالت:
- تتراءى لي معتوهة قليلاً!
فقال:
- أرجو الله أن تكون كذلك، ستكون أفضل من الذكيّة؛ لأنك تستطيعين أن تسخرّيها كما تشائين، دون أن تتساءل: "لماذا؟"!
فتألّق وجه مليحة خان كثيراً، وانصرفت لنفسها، تتزيّن وتتزيّا وتتنزه وتتزاور وتتبادل دعوات القبول.
مرّت بضعة أيّام، وإذا بالتلفون يرنّ، فرفعت مليحة خان السمّاعة:
- هلو..هلو..
وفجأة صاحت بالعربيّة:
- ألف مرحبا بكم..تسرّنا زيارتكم جداً ..تشرّفوننا..
ووضعت السمّاعة وأسرعت نحو باب الحمّام ، حيث كان زوجها يتحمّم، وبشرته:
- ها قد إتصلت أم باسل، وقالت سيزورونا بعد غد مساءً
فصاح زوجها متسائلاً:

- ولماذا المساء؟ أخشى انّها قالت : "الظهر"
فقالت بشوق وفرح:
- وهل أنا حمارة لاأفهم؟! لقد قالت:"عشاء" " نتناول عندكم العشاء"
ثم خرج الزوج من الحمّام وأمضيا تلك الليلة في التداول عمّ يشترونه ويطبخونه. فضحكت مليحة وقالت:
- كمْ كانت تقول بلكنة حلوة نحب (ڤبلي) الرز على طريقة طبخ أهل السليمانية!
فقال زوجها:
- كان ينبغي أن تقولي : على عيني وعلى راسي.
وأثناء ذلك كانت شكرية تأتي وكلّه تذهب وهما تسألان بعضهما: ما الذي حدث؛ ليبتهج السيّد والسيّدة إلى هذا الحدّ؟! أجابت كلّه ببضع(ربّما) ربّما يأتي أبواهما..ربّما تأتي أمّاهما... لكنّ شكريّة لمْ تعد تسيطر على نفسها؛ فسألت السيّدة:
- حمداً على فرحكم الكبير.. ماذا كان التلفون؟
فأجات مليحة ثملة العينين بالبهجة:
- سيأتينا ضيوف كبار وأعزاء جداً.
وتوجهت السيّدة إلى شكريّة قائلة:
- غداً يجب أن نسوي البيت وردة .
فقالت:
- سمعاً وطاعة على عيوني..سأنظف حتى السقوف، لكن بالله عليك أخبريني من هم هؤلاء الضيوف؟
فأجابتها السيّدة:
- وزير الأشغال وعائلته. فسيّدك مهندس في تلك الوزارة.
فسرّ قلب شكريّة تبعاً لسرورهم من دون أن تفهم المسألة.

* * *

في صباح اليوم التالي، قلب البيت رأساً على عقب، ونظفت الشبابيك والسقوف، وتراكمت على الفواكه والخضراوات والدجاج والعليشيش واللحوم. وفي الصباح التالي راحت السيّدة تغرق في بخار ودخان التكّة والكباب والشفته وأنواع المأكولات الأخرى.

واستعدت السيّدة لإستقبالهم بأحلى أزيائها الكرديّة وكامل زينتها، وكذلك الحال مع بناتها وبنيها. وكانت شكريّة و كلّه طوع الأوامر. وانشغل السيّد وقتاً طويلاً لإختيار الربطة المنسجمة مع بذلته، حدّ استشارة ابنتها الصغيرة جيمن! ممّا أثار غضب السيّدة التي قالت:

- شدّ واحدة وخلّصنا..أسرع ..هم على وشك الوصول!

وإذا بجرس الباب ؛ فسارع الزوجان لفتحه واستقبال الضيوف ،الذين اصطحبوا معهم بعض معارفهم ومنهم السيّدة بدريّة وزوجها، والتي ساعدت على ذلك التقارب، ومعهم فتاة في الثامنة عشر أو أكثر، تشبه خادمة. وكان عثمان آغا يُغمى عليه ؛ من فرط انحناءاته مرحباً بهم، وهويضع يده على رأسه وصدره، ويتلعثم من شدّة الفرح. وفي الخارج اصفت بضع سيّارات أمام منزلهم؛ وبدأ الجيران بالهمس واللمز!

ثمّ نادت مليحة خان على شكريّة؛ لتبيّن أنهم عندهم خادمة وعرفتها إلى خادمة بيت الوزير وقالت:

- خذيها عندكم .

ألقت شكريّة نظرة على الضيوف، واستطاعت بصعوبة أن تشخص زوجة الوزير وزوجها؛ فزمّت شفتيها في الحال، وقالت مع نفسها:

- يا خسارة! لقد أهلكوا أنفسهم منذ ثلاثة أيّام من أجل الدبّة الغبراء الشبيهة بالغولة!

وسدّت فمها بيدها واصطحبت خادمة بيت الوزير وأجلستاها هي و كلّه في غرفتهما، ثمّ ذهبت شكريّة وجلبت من الأشياء الكثيرة المصفوقة على ميز الهول قدحاً من الشربت وقدّمته للخادمة الضيفة.

كانوا قد هيّأوا كل شيء؛ ليقللوا من حركاتهم والذهاب والإياب إلاّ وقت العشاء، ولذا جلست شكرية مع الخادمة الضيفة، وكانت كلّه تتفقد مهد الطفل الرضيع من حين لآخر، وانشغلت مع جيمن صديقتها، أمّا أولاد الآغا الكبار فقد انتبذوا غرفة في الطابق الثاني، رغم توسّل أبويهما المسبّق ليستقبلوا الوزير وزوجته..لكنهم شأن الصّبية المراهقين المشاكسين لمْ يستجيبوا لذلك، بل كانوا يسخرون بكهذا ضيوف !

سرعان ما تآلفت شكرية والخادمة الضيفة؛ خصوصاً وانها كانت تتحدث العربيّة حدّ " القادر على إخراج بساطه من الماء " كما يقال. وراحت شكريّة تروي حكايتها لها كيف انفصلت عن زوجها الجائر القاسي، وتحدثت عن البيوت التي عملت فيها شغالة، وامتدحت بيت عثمان آغا، ثمّ نهضت وذهبت وجلبت ماعوناً من الكرزات للضيفة ووضعت أمامها علبة سكّائر.

ضحكت الشغالة الضيفة وتساءلت:

- كيف يمكنك جلب هذه الأشياء ؟ ألا تغضب سيّدتك؟

فقهقهت شكريّة، لكنها سرعان ما انتبهت ؛ فضربت بيدها جبينها، وقالت:

- ويحي! لمْ أنتبه للحضور!

ثمّ توجهت إلى الضيفة، وقالت:
- ولماذا؟ وما حاجتي لاسترخاص السيّدة؟ والله أنا أتصرّف كما أشاء..أجلب..آخذ..آكل..وأفعل كما أرغب.
فضربت الضيفة جبينها بكفها، وقالت:
- ويلي! لو كانت سيّدتي؛ لفضحتني!
وكمن يريد التنفيس عن نفسه؛ قالت :
- رغم كلّ غناهم، تطلع روحها؛ إذا شربت قدحاً من الشربت، أمّا إذا انكسر قدح سهواً بيدي؛ فتغرّمني ثمنه من أجري الشهري!
ثم زفرت زفرة حارة، وقالت متحسّرة:
- كلّ مساء حين يقيمون وليمة لمعارفهم، يقوم أبي التعيس بإعداد التكّة والكباب، فتحسب سيّدتنا الأشياش، ولاتعطينا لقمة واحدة!
تأثرت شكريّة وانزعجت، وقالت:
- ولماذا لاتتركانهم؛ فهنا وهناك ألف مكان..؟!
فأجابت الشغالة:
- لأننا نسكن في كوخ داخل بستانهم، حيث يعمل أبي بستانيّاً،ويتسوّق لهم وينفذ جميع طلباتهم، وكانت أمي أيضاً تشتغل عندهم، لكنها الآن مريضة طريحة الفراش؛ فقالوا لأبي إمّا أن تأتي بـ (حلوة) لتشتغل لنا بدلاً عن أمّها، أو إخلوا الكوخ وغادروا!
فغضبت شكريّة ولعنتهم في قلبها، ودعت من الله أن تنتقم منهم. وأضافت حلوة:
- لأننا نسكن الكوخ بدون دفع إيجار.
وارتشفت حلوة رشفة من الشربت، وقالت:

- وجاء بضعة خطّابة لطلب الزواج مني، لكن السيّدة رفضت لكي أبقى أخدمهم.
ثمّ هزت رأسها، وقالت:
- كلّ ذلك بسبب أخي، بينما قال أبي مرات أن نخرج من هناك، لكن أخي الذي تسرّح من العسكرية منذ سنة يكبت أنفاسنا ويفرض علينا السكوت والبقاء؛ لأن السيّدة وعدته بتعيينه!
وظلت الخادمتان تتبادلان حديث شجونهما، وتعاتبان وتلعنان حظهما التعيس، حتى انتفضت شكرية على نداء سيّدتها، فاسرعت إليها لتعرف ما تريد منها.
تقدمت مليحة خان أم باسل تأخذها إلى غرفة النوم، حيث فتحت باب الكنتور؛ لتفرّجها على ملابسها الكردية، التي كانت قد غربلتها بالأمس، فبسطت البقيّة لأم باسل التي أخذت تقلبها:
- الله الله ما أحلاها!
كانت مليحة خان إمرأة فارعة سمراء حسناء ثملة العينين، وصاحبة ذوق رفيع، تليق بجسمها الملابس الكرديّة، وتزيدها حسناً وجمالاً ، وبالأخص مع شدّة رأسها بطرحة ذات شراشيب وحلي فولكلوريّة. فخالت أم باسل نفسها بالحسن نفسه؛ إذا ما تزيّت بزيّ كردي! ورغم أن مليحة الشيطانة كانت تدرك خطل ظنها، وتقول في باطنها هازئة منها: " ماذا تجديك هذه الملابس أيّتها التعيسة وأنت أشبه ببرميل؟!" لكنها كانت تتظاهر متشيطنة مادحة قوام أم باسل وحسنها الفتان؛بغية التقرّب منها ومن ثمّ زوجها الوزير. فكانت ترفع هذا الثوب

وتقدره على قوام أم باسل، وترميه مسرعة إلى حمل وتقدير غيره ، وتقول:
- الله الله هذا ينسجم أكثر مع قدك ولون بشرتك الجذاب!
ثمّ تمازحها:
- والله لو إرتديت هذا الثوب؛ لما ذهب أبو باسل إلى الدوام غداً، وبقي معك!
فكانت أم باسل تتهاوى على الملابس كالمغشية عليها ؛ من فرط الضحك، وتلوّح بيديها القصيرتين المكتنزتين والمكتظتين بشتى أنواع الأسورة النفيسة، وتبدو خواتمها الذهبيّة والماسيّة في أصابعها المنتفخة. وكانت من هناك تنادي أبا باسل وتسأله بصوت عال:
- أسمعت ما قالته أم جرا؟!
وتقول له ما قالته أم جرا؛ فتتعالى قهقهاته وعلّق :
- إذنْ أرجوك لاترتديه؛ لأنه لابدّ لي من الذهاب إلى الوزارة، رغم أن غداً هو الجمعة؛ فعندنا اجتماع خاص وعاجل مع رئيس الوزراء.
بينما كان يقول في باطنه: "والله لاجدوى حتى لو ارتديت ملابس من الذهب واللآلىء! فأنت لمْ تكوني جميلة حتى في شبابك" وكان يختلس النظر إلى النسوة الأخريات، ويقول مع نفسه:
- إلهي ماذنبي؟! لماذا لم تجعل واحدة مثل هؤلاء من نصيبي؟!
كانت زوجته قد عوّدته ألاّ يقرّ له قرار ويهنأ بدونها ولو يوماً واحداً، وألاّ ينسجم مع غيرها حتى لو كانت حورية وملاكاً؛ إذ كانت تداريه كطفل مدلل جداً، تلبسه وتحمّمه بنفسها، وتوكّله من شتى المأكولات اللذيذة التي كانت

تعدها بنفسها، بل تسعى إلى إبرازه بين معارفه والناس كافة، وهي كوّنت له بيته فغدا صاحب قصر، رغم انه كان في البدء موظفاً صغيراً يتقاضى بضعة دنانير! و ها هو قد صار وزيراً. ولذا فقد سيطرت زوجته عليه، فأصبح يمتثل لكلّ ما تنطق به!

إختارت أم باسل ماشاءت من الأزياء الكردية، وحان وقت العشاء؛ فازدان الخوان بشتى أشهى الأطعمة من الرز القبلي والكباب واللحم المشوي،فامتدت الأيدي وابتلعت الأفواه ما لذ وطاب مع المديح الموجه إلى سيّدة البيت، مع تصاعد ألفظ وعبارات : " ما أطيب هذا! ما ألذ هذا! "

وقدمت شكريّة المزيد من الطعام للخادمة الضيفة، وجمعت ورتبت ما تبقى في قدور وضعت في صندوق سيّارة أم باسل، ولمّا لمحت الشغالة الضيفة ذلك؛ علّقت هامسة في أذن شكرية وهي تضحك:

- والله ستدبر سيّدتي وليمتين- ثلاثاً بهذا الطعام وتزهو به! فلو فتحت ثلاجة بيتها؛ لشاهدت الدولمه والكباب ومأكولات الناس، التي تجمعها على انها حصّة باسل الغائب عن هذه الوليمة وتلك العزيمة! ثم تستخرج منها باقتتار كما لو انّها مثاقيل ذهب، ولاتعطي لقمة لمن يخدمهم حتى لو مات جوعاً!

وفي اليوم التالي، كان الجميع في بيت عثمان آغا متعبين، فلمْ يستيقظوا من النوم إلاّ في وقت متأخر، وبالأخص كان يوم الجمعة. وكانت مليحة خان قد استيقظت قبل الجميع؛ لترضع طفلها آسو، وبعدها ذهبت وأيقظت شكريّة وكلّه قائلة:

- إنهضا فالوقت متأخر.
فنهضت شكريّة، ولملت نفسها، وخرجت من الغرفة، وفي طريق عودتها من المغاسل، لفت طرحتها حول عنقها، وتلفظت بالشهادة، وعادت إلى الغرفة، ثم غادرتها إلى الهول، ونظرت حواليها، وقالت:
- على الله ..دبّرنا ضيافة البارحة، ولاأدري من أين أبتديء الآن؟!
توقفت قليلاً، ثمّ قالت:
- لأذهب أوّلاً لإلقاء نظرة على المطبخ.
جاءتها السيّدة وسألتها:
- وأين كلّه؟!
فأجابتها:
- والله سيّدتي خطيّه فلمْ أوقظها؛ فالساعة الآن السابعة والنصف، واليوم جمعة عطلة...
ثم ضحكت وقالت:
- و ها أنا الآن بين يديك تفضلي مريني، هل أعد الشاي؟
أجابتها السيّدة:
- أجل..لنفطر أوّلاً، ثمّ ننشغل بالتنظيف والترتيب.
فقالت شكريّة:
- حسناً .
- فعادت السيّدة إلى غرفة النوم، حيث كان زوجها على وشك النهوض، فقال وهو يتثاءب:
- كنت أبتغي النوم أكثر؛ فاليوم جمعة، ولا أدري كيف استيقظت! وحاولت كثيراً أن أعاود النوم دون جدوى، في حين يغلبني النعاس في صباحات الأيام الأخر، بينما عليّ التبكير في الإستيقاظ ونقل الأولاد إلى المدرسة.

إقتربت منه زوجته، وقالت:
- إنهض..إنهض..ما شاءالله من التي جلبتها لي!
فتساءل زوجها فوراً: كيف؟ ماذا تقولين؟!
ونهض ، ونظر إلى فم زوجته ينتظر جوابها. فجلست على حافة السرير بسكون وخمود، ثمّ قالت:
- لقد جاءت الهانم لتفسد لنا وتؤلب علينا حتى البنت اليتيمة كلّه!
فسألها:
- عمّنْ تتكلّمين؟!
فأجابته:
- عن السيّدة شكريّة، التي سألتها لماذا لم تستيقظ كلّه مشعولة الصفحة،؟ فأجابتني بأنها هي التي تركتها تنام لأنها خطيّه ومازال الوقت مبكراً. والله لمْ يكن ينقصنا إلاّ هذا!
فعصر زوجها يدها، وتمتم قليلاً، ثمّ قال:
- وما الضير في ذلك يا عزيزتي أليس اليوم هو الجمعة؟!
وسرعان ماتراجع عن تعاطفه فأضاف:
- إذا أردت؛ سأذهب وأوقظها، بل أخبّلها ! لماذا تزعجين نفسك في هذا الصباح الباكر وتفسدين النهار على نفسك؟ فلتنفقيء عيون كلّه وأبيها؛ إنْ إستيقظت أو لمْ تستيقظْ!
ثمّ نهض ولبس روبه، واقترب منها وعانقها، وقال:
- هيّا ابتسمي واضحكي؛ فلا أطيق رؤيتك كئيبة ومبرطمة.
فدفعته عنها بدلال وهي تقول:
- مازالت رائحة الخمر والويسكي تفوح من فمك.

فألقى عثمان آغا نفسه على الفراش من جديد، بوجه مبتسم وبشوش؛ كأنه يتذكّر حدثاً مبهجاً جداً، أو كبطل إجترح مأثرة رجوليّة وإنسانية عظيمة، أو أبدع شيئاً رائعاً، ووضع يده على جبينه، وقال:

- أتعرفين كمْ قنينة شربنا ونحن خمسة رجال؟ أمهليني لأحسب ...قنينتا ويسكي، قنينة عرق وقنينة شراب.

ونهض وأضاف:

- صدّقيني لاأعرف بالضبط كمْ شربنا، ولكن الجلسة كانت قيامة!

وضحك، ووضع يديه في جيبيّ الروب، وخطا خطوتين نحو باب الغرفة، واستدار فجأة عائداً نحو زوجته، وقال:

- تبّاً لزوج بدرية خان! فقد كرع وحده قنينة ويسكي، كأنه قربة مثقوبة!

فضحكت مليحة خان، وقالت:

- لاأدري ماذا أقول؟ فبعض الناس الذين يحضرون مثل هذه الوليمة يلهفون كلّ شيء كما لوانّهم حصلوا عليه مجاناً!

فلوّح عثمان آغا بيده، ووجهه منفت ومحمرّ، وقال:

- يا مهجوم البيت! ألمْ تسمع بالقول: " إذا كان الأكل مجاناً؛ فروحك ليست بالمجان" ؟! لا أدري كيف لمْ ينفجر!

ثم تشابكت يداهما، وخرجا من غرفة النوم.

* * *

وفي مساء ذلك اليوم، رنّ جرس الباب؛ فهبّت كلّه راكضة وفتحت الباب، وتبعتها شكريّة وبقت، بينما عادت كلّه لتخبر مليحة خان:

- سيّدتي تاكسي وضيوف.
وحالما نهضت مليحة خان وهمّت بالسؤال : " مَنْ هم؟" دخلت إمرأتان بالزيّ الكردي يتبعهما رجل بالزيّ الكرديّ أيضاً، فهبّت مليحة خان لإستقبالهم، وهي تقول:
- مرحى ..إنه عمّي وزوجته ومعهما عمة عثمان آغا. من أين أتيتم؟ ألف مرحباً بكم.
وضجّ المنزل بلغط الترحيب وجاء الأطفال وعلا صوت التقبيل وعبارات: " روحي لك الفدا" و" دمت سالماً" و" مشتاقون..."...
وجلبت شكرية حقائبهم وصررهم ، وكانت كَلّه تتقافز فرحاً وهي تساعدها في حمل ونقل الأشياء، وقالت لها مليحة خان:
- هيّا هيّا خذي الأشياء إلى تلك الغرفة الكبيرة، وأسرعي بإيقاد مدفأة فيها.
ونزع العم حذاءه، ونزعت زوجة العم والعمة عباءتيهما، وجلس الجميع، وسارعت كَلّه إلى جيمن صديقتها وسألتها همساً:
- من هؤلاء؟
فأجابت:
- هؤلاء جدّي وجدّتي مع أخت جدّي.
لكنّ كَلّه لمْ تعلّقْ بشيء جيّد أو سيّيء.
فأدركت جيمن أن كَلّه لمْ تفهمْ بالضبط، وأخذها الخيال بعيداً ؛ فضحكت وقالت موضحة:
- هؤلاء والد أبي ووالدته، وعمته(أخت أبيه).
وعندها فهمت كَلّه وابتهج قلبها، وصفقت بهدوء وهي تردّد:

- الجد والجدّة.
ذهبت كلّه إلى حيث كانت شكريّة منشغلة ومهمومة جداً في إعداد منامات الضيوف، تضع هذا الدوشك، وترفع تلك الوسادة..توزع البطانيات والألحفة وتبسط الشراشف، وكانت بطبعها هلاميّة! وعندها همست كلّه في أذنها:
- هؤلاء الجدّ الجدّة..أبو الآغا الكبير وأمّه.
فجالت شكريّة بعينيها وتأكدّت من خلو الغرفة من غيرهما، فابتسمت وسألت هامسة:
- ومَنْ تكون أمّ رأس السّلّة؟!
فقهقهت كلّه عالياً، فصفعتها شكريّة ونهرتها:
- إخفضي صوتك.
ثمّ انخرطتا في الضحك بهدوء.
بعد ساعتين، عاد الآغا الكبير ، فسارعت كلّه تبشّره بمقدم الجدّ والجدّة؛ فسارع إلى الترحيب بالضيوف وطغى الإحتضان والتقبيل وتبادل العبارات الرقيقة، وجلس الجميع مغتبطين، وعثمان آغا يردّد:
- الله بالخير ألف مرحباً..كيف جئتم فجأة دون إخبارنا بمقدمكم؟!
كان عثمان آغا في حيرة من المفاجأة، ولا يعرف ماذا يفعل بالضبط. ويلقي نظرة على زوجته بين الفينة والفينة، ثمّ تساءل:
- خير إن شاء الله.. هل أحد مرض لاسامح الله؟!
فمدّ والده يده إلى استكان الشاي الموضوع أمامه، وأجاب:
- حمداً لله إطمئنْ ، لكن أمّك تعاني من وجع أسنانها، عمّتك أنت أدرى بحالها؛ فقد قلعت منذ سنتين جميع أسنانها، وجاءت خلال صيفين إلى المدينة ؛ لتصنع لها

طقماً من الأسنان، لكنها لمْ تفلح، وبينما كنّا نستعد للسفر، إلتحقت بنا في هذا البرد، فاصطحبناها لأنها مسكينة؛ ليصنعوا هنا لها طقماً أفضل ممّا في (السّليمانيّة) بالإضافة إلى اشتياقها لكم.

فجلس ابنهما قليلاً، ثم نهض وكرّر:

- ألف مرحبا بكم. حسناً فعلتم بمجيئكم، غداً سأجد لهما أفضل طبيب اختصاصي .

ثمّ عانق أمّه وعمته مرّة أخرى.

في هذه الأثناء ذهبت مليحة خان إلى المطبخ، حيث كانت شكريّة تعد الطعام للضيوف؛ لتوجهها وتساعدها، فسألتها شكريّة:

- سيّدتي العزيزة لماذا تشبه ملابس العمّة ملابس القرويّات ولاتشبه ملابس الجدة؟ أما ترين شدّة رأسها الكبيرة والمسبحات العديدة في عنقها؟!

فهزت السيّدة رأسها وزمّت شفتيها بهدوء دون أن تلحظها شكرية وأجابت:

- لأنها تعيش في القرية، حيث زوّجوها من قرويّ هناك، وظلت تعيش هناك، ونادراً ماتزورنا، وهذه هي المرّة الأولى تزورنا في بغداد.

كانت شكريّة تكاد أن تقهقه من منظرها العجيب، لكنها تمالكت نفسها، وسألت:

- وما حكاية كل هذه المسبحات في عنقها يا سيّدتي؟!

فأجابت السيّدة بانزعاج:

- إنّها درويشة طريقة صوفيّة، وهي امرأة متديّنة جداً، وبسيطة مسكينة وساذجة، ولكن زيّها هكذا دوماً.

كانت مليحة خان تبدو منزعجة غاضبة قليلاً، لكنها كانت تتظاهر بالعكس على انّها مسرورة بمقدمهم.
وفي تلك الليلة، إنشغلت شكريّة وكلّه وحتى السيّدة بإعداد الحمّام والملابس لبنين وبنات الآغا استعداداً لدوام المدرسة في الغد. وقد أنجزن كلّ شيء في وقت متأخر، وذهبت كل واحدة إلى النوم في غرفتها.
وراح عثمان آغا ومليحة خان يتجاذبان أطراف الحديث همساً في غرفة النوم، حيث قالت الزوجة:
- ألف مرحباً بهم، لا اعتراض لي على أيّ شيء، لكنني أخشى أن تجتاج حال الدروشة عمتك؛ فيخاف أطفالنا، أو يفاجئنا ضيف وهي على تلك الحالة.
وهزت رأسها وأضافت:
- لا أدري ماذا أقول، كان المفروض بأبويّ عدم اصطحابها،أتخلو السليمانيّة من صنّاع ومركّبي الأسنان؟!
فقال زوجها:
- يا عزيزتي ..لقد جاءت وانتهى الأمر..فمرحباً بها فهي مسكينة ، وليس التدروش عيباً وعاراً، وإن شاءالله لن تتدروش.
وقالت مليحة خان:
- ثمّ شدّة رأسها الكبيرة ونقابها..كان المفروض بحماتي أن تنبّها أن هنا بغداد.
فعلّق زوجها:
- هنا بغداد؛ فيجب أن تصغّري رأسك!
وعندها انخرطا في الضحك، واندسّا في الفراش.
وذهبت شكريّة وكلّه للنوم في غرفتهما بعد تلبية المزيد من أوامر وطلبات أهل البيت، فسدّت الباب وقالت مع نفسها:

- عمّر الله بيتكم. أماكفتكم الأوامر؟ دعونا نهنأ بالراحة قليلاً، فأنا وهذه الطفلة التعيسة واقفتين وندور هنا وهناك منذ الساعة السّابعة والنصف صباحاً، وها هي الساعة تقارب الثانية عشرة.
وفرشت شكريّة الفراشين مع كلّه، وكانت قد علّمت كلّه كيف ترتب الأفرشة بانتظام وكيف تتغطى..فطالما كانت البطانية تنحسر عليها؛ فتغطيها شكرية من جديد في كلّ ليلة. وفي غضون فترة قصيرة صارتا كما الأم والبنت أو المرأة والأخت الصغيرة، وقد انتعشت حالة كلّه انتعاشاً ملحوظاً؛ بمؤازرة شكريّة التي كانت تنفذ الأشغال الثقيلة بدلاً عنها لإشفاقها الجمّ عليها. وكانتا في كلّ ليلة تتجاذبان أطراف الحديث قبيل النوم، وتعلّقان ساخرتين من بعض عادات وتصرفات الآغا وزوجته؛ ثمّ تضحكان كثيراً. أمّا هذه الليلة وقد جاء هؤلاء الضيوف؛ فقد ضحكت شكريّة على منظر العمة كثيراً، وهي تقول:
- شكلها مضحك جداً. برأسها الكبير، وخديها المقعرين وسنّها الوحيدة الباقية!
وكانت شكرية تسارع إلى طلب التوبة من الله، ثمّ تعاود التعليق وتضرب صدرها بهدوء وتضحك، وتقول:
- يقولون انّها متديّنة جداً وتتدروش..أفتدي الدين بروحي، ولكن ما هذه الأساور والخواتم والحلي الفضيّة التي تتزيّن بها؟!
ثمّ تبدأ بتعداد حليها:
- (كوبروك) فضي و (لاكيره) فضيّة ودزينة من الأساور!
وتمسح عينيها من دمع الضحك، ثمّ تضيف:

- ربّما ستسمع خرخشة حليها من مسافة مسيرة يوم؛ إذا ما تدروشت!

وكانت كلّه أيضاً تندسّ في فراشها،وفجأة تضحك، وتنهض واقفة على قدميها، وتفتح ذراعيها، وتنفخ خدّها، وتبرز بطنها إلى الأمام مقلّدة عثمان آغا عند استقباله لأبويه: " أهلاً ومرحباً بكم ..." فكان تنفس شكريّة يضيق من فرط الضحك. ولأنها كانت قد استعادت توازنها قليلاً؛ فقد قالت لكلّه:

- ليس الآغا بديناً نافر الكرش إلى هذا الحد يا بنيّة!

ثمّ كانتا تسكتان وتتغطّيان، وفجأة تعلّق إحداهما؛ فتقول الأخرى:

- كفى..لننام.

وفي صباح اليوم التالي ، ضجّ البيت بالحركة واللغط، حيث كانوا يهيّؤون الأطفال للذهاب إلى المدرسة، فكان أبوهم يسرع إلى لمّهم من جهة، ومن جهة أخرى كان عليه أن يتفقد أبويه ويتحدث لهما عن طبيب الأسنان وصانع الأسنان مظهراً لهما إهتمامه البالغ ليطمئنا، وكذلك كان يتفقد عمته التي خصصوا لنومها غرفة صغيرة؛ لكي لايضايقها أحد، ولاتضايق أحداً، إذ كانت تصلّي كثيراً، وتنهض منذ الفجر.

كانت مليحة خان تدمدم وتهمهم بهمس وهي متوجهة إلى زوجها الذي كان يبحث عن مفتاح سيّارته في جيوبه، وفي ركام الصحف والأوراق وعلب السكائر والشخاط على الطاولة..وقالت له:

- حسناً.. اليوم هو موعد (قبول) بيت الحاكم عبدالله؛ فكيف يمكنني أن أذهب وهؤلاء هنا؟! ولمْ أستطع الحضور في

قبولهم السّابق لسبب طاريء؛ والآن ألا يقولون عنّي إنّها تتحجج بحجج واهية، كلّما يحن موعد قبولنا؟!
وجد زوجها مفتاح السيّارة؛ فتنفس الصعداء، وقالت:
- صدقت.. لمْ تذهبي في المرة السّابقة. ها تذكرت..لأننا رافقنا إبن خالي عَبه إلى المطار ليسافر، وكان أهلهم جميعاً هنا.
فتساءلت زوجته:
- واليوم ماذا أفعل؟!
فأجابها:
- أقول: إذهبي؛ فأبواي وعمتي أهلنا وليسوا غرباء..سأعود مبكّراً إليهم..أمّا أنت فاذهبي ..الله معك.
وسرعان ما إلتفت إليها وأضاف:
- سأتلفن إلى تاكسي شركة نقل لإيصالك وإعادتك.
ثمّ خرجت زوجته بعده، وكانت تبدو ملولة قليلاً، لكنّها سرعان ما راحت تتظاهر بالبشاشة والبهجة أمام حماتها وحميها:
- الله ما أحلى هذا اليوم بوجودكم!
وإذا بالعمّة مع هرير حليّها الفضيّة ومسبحاتها، وقد لفت بطرحتها فمها الأدرد، وهي تمسّد رؤوس الأطفال وتربت على أكتافهم وترتل أدعيتها وتقول لهذه : "إن شاء الله تصيرين دكتورة" ولذاك: " إن شاءالله تصير حاكماً"
وابتدأ الفطور، والحديث والسؤال والجواب عن الأحوال.
وكانت مليحة خان في تلك الأثناء تبحث عن فرصة لتعلمهم بخروجها اليوم إلى القبول؛ فاستغلت دعاء العمّة الذي وردت فيه كلمة الحاكم، وقالت مبتسمة:

- يا للعجب ؛ نطقت العمة بكلمة حاكم؛ فتذكّرت تلفون بيت الحاكم عبدالله في الليلة البارحة، وقالوا يجب أن تشرفينا غداً بزيارتك. فأجبتهم:" لا، كيف أجيء وعندنا الأعزاء عمتي وعمتي وعمة أبي جرا؟! "

فانبرت حماتها وهي تعدّل طرحة رأسها:

- قسماً بمرقد النبيّ(ص) لابدّ أن تذهبي؛ فنحن لسنا غرباء، وسيكون الأطفال معنا .

فقالت مليحة خان:

- واه! وكيف يسمح لي قلبي أن أترككم؟

فقال حموها:

- قسماً بالله العظيم يجب أن تذهبي؛ فنحن لسنا أطفالاً!

وأضافت حماتها:

- إذهبي ولاتؤخري نفسك..هيّا هيّئي نفسك وافعلي مايروق لك.

فقالت الكنّة:

- مازال الوقت مبكّراً جداً، والموعد في حدود الساعة الخامسة والسادسة مساءً.

فقال حموها:

- إذهبي يا بنتي .الله معك.

كان حموها وحماتها إنسانين رائعين جداً. كانا طيّبيّ القلب وصادقين صريحين، وكانا يحبّان الخير للناس بقدر مايحبّانه لأنفسهم وأولادهم وأطفالهم. كانت حماتها إمرأة محترمة جداً ومؤمنة بالله، ورغم انهم لم يكونوا أغنياء جداً؛ فقد كانوا شبعانين وريّانين مرتاحين، وكانت حماتها تحسن دائماً مع الناس، وتساعد سرّاً المنكوبين والمحتاجين والأرامل.وكان طبعها مشابهاً لطبع زوجها وسلوكهما

متشابهين جداً، وما كان يطيقان العيش على انفراد، فقد كان مسنّين لائقين ببعضهما، لكنّها لمْ يكونا عجوزين، بل كانا متألقين متسمين بالحيويّة والأناقة. لقد كانت حماتها إمرأة مهندمة وأنيقة.

كان حموها وحماتها يدركان ماتسببه العمة من حرج بمظهرها العجيب الغريب اللافت للنظر، فقد كان مظهرها ثير فضول الناس ، لاسيّما الأطفال حتى في السليمانية إن ذهبت إلى السوق، حيث كانت جمهرة من الأطفال تتبعها، ويعلّق الناس عليها تعليقات لاذعة، إذ يقول هذا : " تنحّوا لتمر المدرّعة المجنزرة.." ويقول آخر: " تفرّجوا على المتحف الفولكلوري!" فكيف يكون الحال، إذن، في بغداد بين العرب؟! ومع كل ذلك لمْ يسمح لهما قلبابهما الرحيمان ألاّ يصطحباها، أو ان يحرجاها ويخجلاها بقولهما: " غيّري قيافتك"

وعند اقتراب الموعد، كانت مليحة خان قد استعدت بكامل زينتها؛ فابتهج حموها وحماتها لمظهرها الجميل الجذاب بحسنها الفاتن وخفة دمها وزيّها الخلاب، وكانا يتمعنان فيها كأنمها يشهدان عروس ولدهما للمرة الأولى.

ومن ثمّ وصلت مليحة خان وجارتها وشكريّة إلى (القبول)حيث الإزدحام الشديد. كانت عائلة الحاكم عبدالله كرديّة، لكنّ معارفها العرب كثيرون. كانت الحمحمات والكركرات والضحكات والقهقهات ورنّات الملاعق والإستكانات وطقطقات الكرزات مسموعة من بعيد! وسرعان ما لمحتتها أم باسل؛ فنادتها وفسحت لها مكاناً للجلوس جنبها، وراحت تمتدحها بوجه بشوش، لاسيّما

مأكولاتها اللذيذة الشهيّة، وكانت مليحة خان تعلل انطباعها الحسن بلطفها هي فتقول:
- إن ذلك من لطفك يا أم باسل؛ وإلاّ أيّ إمرأة كمليحة وغيرمليحة في مقدورها أن تجاريك في الطبخ؟!
وفي تلك الأثناء كانت ضحكات النسوة تبلغ أجواز السماء!
كانت شكريّة قد أخِذت إلى غرفة الخدم، حيث رأت بضع خادمات مثلها جئن مع سيّداتهنّ، وكنّ عربيّات ماعدا فتاة واحدة جميلة كانت منزوية وتبدو مذهولة شاردة الذهن، وكانت كرديّة باديناليّة لاتعرف كلمة عربيّة واحدة، وكانت خادمة بيت الحاكم عربيّة. وعند دخولها كانت قد حيّتهم . ولأنها عرفت منذ الوهلة الأولى أن الفتاة الملولة المنزوية كرديّة؛ فقد اقتربت منها سائلة عن أحوالها:
- عزيزتي هل أنت كردية؟
فأجابتها الفتاة وهي تنظر إليها بعينين مكروبتين حائرتين:
- أجل..أنا كرديّة.
فابتسمت لها شكريّة وقالت:
- سعيدة بالتعرف إليك؛ فقد خمنت منذ وقعت عيناي عليك ذلك فقد قلت لابدّ أن تكون هذه الفتاة الحلوة كرديّة، ولكنك من أين؟
فأجابت بصوت خافت وراعش وباللهجة الباديناليّة:
- من أطراف دهوك.
وعندها رمت شكرية عباءتها، وجلست جنبها، وكانت في الوقت نفسة تنظر ببشاشة إلى البقيّة واللواتي رحّبن بها. وكنّ أكبر في أعمارهنّ وقد انشغلن في الحديث عن

أولادهـن وكنّـاتهنّ ومـشكلاتهنّ، وراق انـشغالهن ذاك لشكريّة؛ لكي تتفرّغ هي للحديث مع الفتاة الكرديّة.
وبعد أن تناولت شكرية قدحاً من الشربت من يد خادمة البيت، وقدحاً آخر وضعته أمام الفتاة الكرديّة، شكرت الخادمة، وتوجهت إلى الفتاة الكرديّة وانغمست في الحديث معها، بحيث نست وجود الأخريات، ولكنها كانت متأثة في أعماقها؛ فقد أحسّت بمعاناة ومأساة تلك الفتاة الكئيبة الملولة، والتي كانت في حدود السادسة عشر- السّابعة عشر من عمرها، فارعة القد، بيضاء رقيقة البشرة، خضراء العينين، وتبدو مليحة رغم الغم الطاغي على وجهها الشاحب، وكانت تخفي شعرها الذهبيّ الجميل وغير المصفوف تحت طرحة عتيقة كالحة اللون. وطالما كانت تسرع في دسّ يديها الراجفتين تحت ابطيها. وكانت تبدو كالخائفة من أن تُظهر جمالها ؛ فينقض عليها أشباه الضواري النهمة؛ فيزدردونها!
تأثرت شكريّة كثيراً واغتمّت لمظهر الفتاة، فسألتها:
- متى جئت إلى بغداد وفي بيت من تشتغلين؟ وهل أبواك هنا أيضاً؟
وإذا بالدموع تسيل على خدي الفتاة مدراراً، ولمْ تفلح بكفكفتها بكمّها ومسحها بعباءتها، ورفع عينيها إلى أعلى..فتشوّشت شكريّة وعانقتها وهي تلهج بعبارات المواساة:
- أفتديك أختي حبيتي لماذا تبكين؟ ما خطبك؟ أنا أختك ..أمّك سأفعل كلّ ما في وسعي من أجلك.
فمسحت الفتاة دموعها، ونظرت حواليها، ثم قالت:
- لكنني أخاف!

فقالت شكريّة:
- لاتخشي أحداً بوحي لي لأعرف ما خطبك؟
فقالت الفتاة بخوف وخجل:
- كنت أعيش في قريتنا مع أبويّ وأخواتي وجميع الأقرباء كسائر الناس، حيث كان البقالون وسوّاق اللوريات يقصدون قريتنا لشراء الخضروات والفواكه والطماطة ويأخذونها إلى الموصل لبيعها.
ومسحت الفتاة الدموع النازلة على خديها وأضافت:
- كان بين الوافدين إلى قريتنا صاحب لوري، غالباً ما يأتي ويسلّم على أبي، الذي كان يشتغل كاسباً، ويحمّل أحياناً له اللوري. وذات يوم قال لأبي:
- زوّجني بنتك، فوضعي جيّد، عندي دكّان و لوري وشغلي ماشي في الموصل.
جحظت عينا شكريّة وهي تستمع باهتمام إلى ما ترويه الفتاة، التي غصّ حلقها بالدموع من جيد، فسألتها شكريّة:
- هل كان الرجل كرديّاً؟
فأجابت:
- لاأدري، لكنّه كان يتكلّم بكرديّة مكسّرة، ويقول أبواي كرديّان، وأنا كردي، لكنني عشت وكبرت في الموصل. وبعد بضع زيارات وهدايا لأبي؛ رضي أبي بتزويجي منه، لكن أمّي رفضت، وتعاركت معه، وبكت و لطمت رأسها وصدرها، وكانت تقول : " لنْ أزوّج بنتي من هذا الرجل، الذي أخشاه، فهو يبدو من سيماه كذاباً ونصّاباً. وأزوّجها هنا بالقرب مني " ولكنْ لمْ يجدِ بكاؤنا أنا وأمّي ولا ذرف دموعنا المدرارة، فأخذني الرجل إلى الموصل بعد أن أعطى والدي بضعة دنانير.

فاغرورقت عينا شكريّة بالدموع، وهي تستمع بكلّ حواسها ووعيها للفتاة، متناسيّة الشاي وغيره أمامها، ومسحت عينيها بطرحتها السوداء، ثمّ تساءلت:
- كيف كان الرجل شاباً أم شائباً؟
فأجابتها:
- كان في حدود الخامسة والأربعين، وكان شكله مقبولاً. وفي الموصل أسكنني في دار، وقال لي: " هذه الدار لي" لكن قلبي كان منقبضاً دائماً وكنت خائفة، وأشكّ في الوضع، وأبكي باستمرار. وذات يوم عاد إلى البيت، وقال:
- هيّا يا (فيروز) نذهب إلى بغداد، فعندي حمل لابدّ أن أوصله، وأصطحبك أيضاً، فبغداد حلوة وطيّبة.
فرافقته، ووصلنا بغداد، ونزلنا في غرفة، حيث نمنا تلك الليلة، وفي الصباح غادر ، وعاد عند الظهيرة، وقال لي:
- هيّا آخذك لتبقي عند امرأة من معارفنا؛ لأنني يجب أن أنقل حملاً إلى مكان ما، ولايجوز أن أتركك وحدك هنا.
فرافقته إلى منزل معارفه، حيث وجدت رجلاً و امرأة وبضع فتيات ونساء أخريات. وعند المساء تردّد بعض الناس على البيت واصطحبوا الفتيات والنساء وغادروا، ثمّ جاء رجل بزيّ عسكري وهذه المرأة التي جئت معها اليوم إلى هنا، وتكلّمت ربّة البيت معهما بالعربيّة وسلّمتني إليهم، ولمْ تجدِ تساؤلات وحركات رفضي، وأجبروني بإشارات التهديد على ركوب سيّارتهم وأخذوني إلى بيتهم، حيث انتظرت بضعة أيّام زوجي دون جدوى، وأثناء ذلك كانت المرأة تكلفني بأشغال البيت والعناية بأطفالها، وخصصت لي غرفة أنام فيها.

وغطّت فيروز وجهها بعباءتها وأجهشت في البكاء، ثمّ قالت هامسة:

- وذات ليلة انتفضت بعدما شعرت بأحدهم يتمدّد جنبي، وقبل أن أصرخ، أغلق فمي، وقاومته بلاجدوى؛ فقد شلّ ذراعيّ بالضرب وسيطر عليّ، ثمّ إغتصبني عنوة. وراح الضابط يكرّر إغتصابي في كلّ ليلة، وأنا لاأدري لمن أشكو حالي، فلا أعرف أحداً، ولاأدري إلى أين أذهب؟! وأصحو كلّ صباح دامعة العينين، وأشتغل طوال النهار وحتى ساعة متأخرة من الليل، وتتكلّم زوجة الضابط معي بغضب، ولا أفهم ما تقوله، أهي تعنيني أم تشاجر زوجها؟!

فانتفضت شكريّة، وسألتها:

- وأين يقع بيتهم؟

فأجابت الفتاة دامعة العينين:

- لو كنت أعرف إسم منطقتهم؛ لما أصابني ما أصابني.

وزفرت زفرة حرّى كاوية، وأضافت:

- ذات يوم حاولت الهروب من بيتهم، ووصلت بداية المنطقة، فإذا بشلّة من المراهقين يحيطون بي وكادوا أن يفترسوني! لأن بيتهم يقع وسط بستان نخيل والمنطقة مهجورة موحشة؛ فاضطررت إلى العودة ؛ خوفاً عاقبة أسوأ.

فسألتها شكريّة:

- و زوجك العاهر الحقير ألمْ يتفقدك؟

فأجابتها:

- بلى..مرّة واحدة عند الظهيرة فبكيت كثيراً، وطلبت أن يسترجعني وأخبرته بما يفعل بي هذا الضابط. فقال لي:

- لديّ الآن شغلة صغيرة في المنطقة، سأعود وآخذك بعد قليل.
وكان الضابط معه، وأظن انّه قد أعطاه مبلغاً من النقود؛ فذهب ولمْ يعد.
فجنّ جنون شكريّة، وأمست على جمر، فقالت:
- سآخذك معي.
فقالت الفتاة:
- يا ريت..أبوس يديك وقدميك ..أنقذيني بالله عليك.
كانت شكريّة تفكّر في طريقة ما وهي متشوّشة، تقضم شفتيها، فهمست :
- إبقي هنا ريثما أعود بعد دقائق.
نهضت شكريّة وذهبت إلى حيث تجلس السيّدات، اللواتي كنّ يمرحن ويقهقهن بلا همّ ولاغم، في حين هناك فتيات ونسوة منكوبات يتمنّين الموت! واخترقت شكريّة المذهولة جمهرة السيّدات راسمة على شفتيها ابتسامة اصطناعيّة، حتى بلغت سيّدتها مليحة، التي استقبلتها بابتسامة رضا وفرح ، وتوجهت بالكلام إلى السيّدات القريبات منها:
- ها هي شكريتي التي حدثتكنّ عنها..أنظرن إليها كمْ هي أنيقة ولطيفة!
ثمّ التفتت إلى شكريّة متسائلة:
- خيراً..؟!
فسألتها شكريّة:
- سيّدتي هل بقي الكثير لنغادر؟
فسألتها السيّدة:
- ولماذا؟

وضحكت وهي تنظر إلى النسوة بنظرة ذات معنى؛ إذ كانت قد وصفتها لهنّ بأنها معتوهة قليلاً، والله أعلم بما قالته عنها أيضاً!
وأضافت مليحة خان:
- أتراك مللت؟!
فهمست شكريّة في أذنها:
- يؤلمني مغص في بطني؛ فهل يمكنني العودة إلى البيت، حيث ولا واحدة منّا مع الضيوف والأطفال؟
فتساءلت مليحة خان:
- وكيف تدبّرين العودة؟ أتدرين كمْ نحن الآن بعيدات عن منطقتنا؟
فأجابتها شكريّة:
- إطمئنّي سيّدي العزيزة، ولاتخشي عليّ فأنا أعرف كل درابين بغداد ولن أضيع.
- حسناً سأعطيك رقم تلفوننا لئلاّ تضيعي..
فقالت:
- أحفظ الرقم وحتى رقم تلفون سيّدي الآغا في الدائرة.
فقالت السيّدة، وهي تخرج ورقة نقديّة من فئة خمسة دنانير من حقيبتها أمام أنظار النسوة، وناولتها إلى شكريّة :
- وهذه أجرة تاكسي و...
فشكرتها شكريّة كثيراً، وخرجت عائدة إلى غرفة الخادمة، حيث جلست وقالت للفتاة الكرديّة:
- إذهبي للتواليت وابقي هناك دقائق رغم البرد، ريثما آتي إليك.
وتوجهت إلى خادمة البيت وقالت:
- هذه الفتاة تريد الذهاب إلى التواليت، دلّيها رجاءً.

فقالت خادمة البيت:
- خطيّه..أعتقد لاتعرف اللغة العربيّة.
فقالت شكريّة:
- والله صحيح خطيّة لاتعرف أيّ شيء.
فذهبت الفتاة إلى التواليت حسب الإتفاق، وعادت شكريّة إلى الجلوس والتحدّث مع الخادمات، وشربت قدح شربت، ثمّ تسللت هي الأخرى، واصطحبت الفتاة المنتظرة إلى خارج المنزل، عبر الحديقة الخلفية، ولفلفتا نفسيها بعباءتيهما جيّداً وحثتا خطاهما إلى بداية الحيّ ، حيث انتظرتا مرور سيارة تاكسي فارغة، أوقفتها شكريّة وأعلمت السائق بالعنوان، وتحرّكت السيّارة...ومن ثمّ وصلت المكان المقصود، واستلم السائق أجرته من شكريّة،ونزلت شكريّة والفتاة، ومشيتا مسافة، ثم دخلتا منزل الآغا، فهبّ الجميع متسائلين:
- وأين مليحة خان؟ لماذا تركتيها وحدها؟
فأجابت:
- والله آلمني مغص في بطني، وشعرت بالملل.
وعندها انتبهوا إلى وجود الفتاة الكردية معها، فسألوها:
- ومن تكون هذه الفتاة؟!
فأجابت:
- كانت تشتغل معي في أحد البيوت، وأنا أحبّها كثيراً، فاصطحبتها لتقضي الليلة معي.
فرحّبوا بها ، ثمّ تقدمتها شكريّة إلى غرفتها، حيث أوقدت لها المدفأة، ثم عانقتها، وقالت:
- أمهليني والله لأدفن رؤوسهم في قبور أبائهم.
فقبّلت الفتاة يديّ وقدميّ شكريّة وهي تتوسّل:

- بالله عليك إحميني ولاتتخلّي عنّي.
فضربت شكريّة صدرها بيدها وقالت:
- كيف أتخلّى عنك؟ أنت لاتعرفين شكريّة المجنونة، ولمْ تري صولاتها بعد!
وسدّت عليها باب الغرفة، وعادت إلى الآغا وأبويه والأطفال، وسألت عن أحوالهم، ثمّ ذهبت وأخذت بعض الطعام والشاي للفتاة. وبعدها شمّرت عن ساعديها، وسارعت في إنجاز مايجب إنجازه كإعداد العشاء للضيوف والآغا والأطفال، ولكنها كانت طوال الوقت قلقة ومشوّشة التفكير، تضرب الأخماس في الأسداس: كيف تصرّفت هكذا؛ لأنّهم سيعرفون أن الفتاة غادرت معها، واختفتا معا؛ بمجرّد السؤال من الخادمات وخاصة خادمة البيت، ثمّ يجيء الضابط بالبوليس إلى هنا. وماذا تقول لهؤلاء وكيف يرتضون بقاءها هنا؟ وهل القدرة على تحمل هذا البلاء؟ وقد يطردونني، فهناك مائة خادمة تقبل أيديهم. إن ما فعلته يشبه الإختطاف، وبعدها من يثق بي ويؤويني إذا وقع إسمي في سجلات البوليس؟! أما كان الأفضل أن أعزي وأسلّي هذه الفتاة المنكوبة ببضع جمل مجاملة وأتركها لقدرها وأمضي في سبيلي؟! فكانت تعود إلى براثن ذلك الذئب العاهر، ثم يجيء زوجها القوّاد ويأخذها إلى آخرين متاجراً بها، مسلّماً شرفها كلّ يوم إلى هذا وذاك ويملأ جيوبه بالنقود ثمناً للعار والشنار، أمّا أنا فكنت أعود مع سيّدتي إلى البيت، حيث أشتغل وآكل وأنام مرتاحة. وما لي ومشكلات الناس؟!
إذنْ؛ ما الفرق بين الإنسان والحيوان؟! ولماذا يسمّوننا بالبشر؟! ومعنى الضمير الدين والعقيدة والإيمان؟! ولماذا

وجـدت الحكومـة، ووضـعت القـوانين؟! أليـست لمنـع الإضطهاد والظلم ومحاسبة المعتدي وحماية شرف الناس وكرامتهم؟ ولكن إذا كان الأمر هكذا؛ لما كان يحدث مثل هذا؟! أو أنّ كلّ هذا كذب في كذب، وهو مجرّد لافتة لخدع أنظار الناس ؛ ليقوالوا انّ العالم متقدّم والمدنيّة قائمة ، ولايفرّق القانون بين الفقير والغني. إذنْ ؛ اللعنة على هذه المدنيّة!

ربّما سيأتي زوجها القوّاد، ويبرز عقد قرانه، وينقض مع البوليس على هذه المظلومة ويسلّمونها بيد القانون الذي سيقول منْ حقّه؛ فهو زوجها شرعاً وقانوناً، ثمّ يسلّمونها إليه، وبعدها يعلم الله وحده ما سيفعل بها.

وضربت شكريّة جبينها بقبضتها، وانتفضت خارجة من بئر هواجسها وخيالاتها، وقالت مع نفسها:

- والله لن أتخلى عن هذه الفتاة؛ وليكنْ ما يكون، فليسجنوني..!

وهزت كتفها وقالت:

- ولينشروا عني في الجرائد..سأضحّي بنفسي من أجلها.

وقهقهت فجأة كالمجنونة وقالت لنفسها:

- أصير قربان الله؛ لقد تذكّرت..ولماذا لمْ أتذكّر منذ البداية؟ آه لقد كنت مشوّشة البال جداً؛ فتوقف دماغي من القهر.

فابتهج قلبها، وخف خوفها وتشوّشها قليلاً، وقالت:

- إذا لمْ يرض هؤلاء ببقائها؛ سآخذها إلى الخالة (فهيمة)

وضحكت فرحانة كأنها وجدت كنزاً، وقالت:

- تبّاً لك يا شكريّة؛ لماذا انطبقت عليك الدنيا؟! لماذا نسيت الخالة فهيمة تلك المرأة الطيّبة الخيّرة الشهمة؟! أدعو الله

أن يجعل ألفاً من أولئك العاهرين والكلاب المسعورة قرلبين لك.
سرّ قلب شكريّة سروراً عارماً، فأعدت العشاء والسُفرة وحادثتهم بوجه بشوش، وكانت كَلَه تساعدها، فقالت لنفسها:
- يا إلهي كنت ألوم هؤلاء عل تسخير كَله في أشغال ثقيلة، وظننتهم قساة بلارأفة، ولمْ أدر بوجود أدنياء عتاة مثل أولئك في الدنيا! ألتمس منك التوبة يارب وأروح فداءً لمثل هؤلاء النجباء المهذبين.
وعندها صفعت كَله، وأمرتها:
- هيّا خذي هذه الصحون إلى غرفة تناول الطعام.
وقالت لنفسها:
- ما أسعدك يا كَله هنا بالمقارنة مع تلك الفتاة المنكوبة التعيسة!
وفكّرت شكريّة وقالت لنفسها:
- أليس من الأفضل أن أستشير سيّدي، فهو رجل رحيم، ينبغي أن أصارحه قبل أن تعود السيّدة؛ لأعرف رأيه، فلابدّ أن يقول شيئاً أو يغضب منّي، أو يدلّني على طريق ما.
فتشجعت شكريّة وبحجة الأطفال طلبت من سيّدها الذهاب إلى غرفتهم، وارتبك الرجل وارتاب ، حيث لمْ يجد أيّ طفل فيه، ماعدا شكريّة؛ واعتراه الخوف وتلعثم وهو يتساءل:
- ما الخطب يا شكريّة؟ماذا تريدين؟!

فلمْ تدعه شكريّة أن يشطح بخياله ويظن بها السوء، حيث سارعت بتقبيل يديه، وعيناها مغرورقتان بالدموع؛ فانتزع الرجل يديه، وهو مضطرب وقال:
- أستغفر الله..أستغفر الله..يا أختي ..يا بنتي..
فعجّلت شكريّة تحكي بإيجاز قصّة الفتاة وهي تبكي، ومن ثمّ قالت:
- والآن أترك المهمّة لوجدانك ومروءتك ، وأنا طوع أمرك.
فاضطرب الرجل وانزعج كثيراً، وعصر يديه، ونطق بضع شتائم، وخرج من الغرفة غاضباً، وعاد وتوجّه إلى شكريّة وقال:
- في الحقيقة انها خطيّه وقصّتها مؤلمة ومحزنة جداً، ولكنهم سيعرفون حتماً بفعلتك، وقد يستقدمون معهم البوليس لتفتيش بيتنا، وربّما يسيؤون لنا أكثر.
كان الرجل يتكلّم بسرعة، ولايدري ماذا يفعل، وقد صار دماغه خليّةزنابير: سوء السّمعة، الأقاويل، البوليس، الظلم ، الشفقة،الغيرة والشهامة، لاسيّما وأن الضحيّة فتاة كرديّة..وشحب وجهه لاحتدام الهواجس والوساوس في قلبه وعقله؛ فخرج إلى باحة المنزل، وذهب إلى الحمّام، وفوق كل ذلك تخيّل رجوع مليحة حان، فتراها كيف ستتصرّف وهي إمرأة طيّبة وغيورة وشهمة في هكذا مواقف، لكنّه خشي أن تغضب وتتشاجر، بل تطرد شكريّة؛ لأنها قاسية القلب أحياناً، وعطوفة في أحيان أخر.
وحبّذ الرجل أن يجد بسرعة الحلّ المناسب قبل أن تعود زوجته.

ولمّا لاحظت شكريّة احتدام ارتباك واضطراب الرجل الحائر؛ شدّت رأسها بطرحتها جيّداً، وتلثمت بها قليلاً، وأحكمت وضع ذراعيها وكمّيها، كمن يستعدّ للمحاكمة، ودخلت غرفة الأطفال، حيث كان يجلس الآغا المحتار، فتوجهت إليه قائلة:

- سيّدي! هل ستساعدني؛ إذا وجدت للفتاة مكاناً أميناً لدى امرأة من معارفي، وتدافع عني إذا ما اتهموني، وانكرت علاقتي بالفتاة؟

فتساءل الرجل بحماس:

- وهل تعرفين فعلاً مثل هذا المكان؟!

فابتهج قلبها وأجابت:

- أجل. قسماً برأسك أعرف مكاناً لن يعثروا على الفتاة حتى لو فتشوا خمسين سنة! والمرأة التي أعنيها مؤمنة راسخة الإيمان بالله، ولن يقرّ لها قرار حتى تسلّمها لأبويها.

فسألها:

- منْ هي ومنْ هو زوجها؟

فأجابته بعينين مسرورتين وبشيء من الإستحياء:

- سيّدي المفدّى! هي إمرأة فاضلة وفقيرة، وزوجها عامل سابق في شركة النفط، وهو الآن شايب متقاعد، وهما بلا أطفال، ويعيشان في هدوء ومنزلهم يشتمل على غرفتين صغيرتين وطارمة صغيرة.

ورفعت شكريّة يدها، وهي تقول مبتسمة:

- وقد عملت مثل هذا المعروف بضع مرات، وأنا ألوذ بها؛ كلّما أصابتني مصيبة أو تمرّضت وأعجز عن العمل..

ثم أحنت رأسها ونظرت إلى الأرض، وأضافت:

- والآن إنْ كنت قد قررت إسنادي والدفاع عني ومؤازرتي في إنقاذ هذه الفتاة المظلومة؛ سأظلّ أدعو الله لك بالخير والموفقيّة، وأجرك عظيم لدى الله بإنقاذك لشابّة كرديّة جميلة منكوبة من غدر بشع.

فقال عثمان آغا:

- رائع جداً، عليك تدبير الملاذ، أمّا الباقي فعوفيه عليّ.

وعندها ألقت نفسها على يده لتقبّه، لكنه انتزع يده، وسألته شكريّة:

- هل آخذها الآن؟ الآن أفضل حيث يطغى الظلام.

فقال السيّد:

- هيّا اذهبي

وسارع مضيفاً بصوت خافت:

- إذا ما أتوا وسألوك عنها؛ فقولي: " صحيح جاءت معي ، لكنّها ودعتني بعد نزولنا من التاكسي وذهبت إلى حال سبيلها،وعدت بدوري إلى البيت"

وهمّت شكريّة تسرع في الذهاب، لكن السيّد المضطرب سألها:

- حين خرجتما من بيت أهل القبول هل رآكما أحد؟

فأجابت شكريّة:

- قسماً برأسك سيّدي لم يلمحنا أحد؛ لأننا غادرنا المنزل من باب الحديقة الخلفيّة، وكانت سيارات الضيفات واقفة أمام بابهم، بل تأكّدت من عدم وجود أحد

فقال لها:

- إذنْ قولي لمْ أرها، ولاتقولي غادرت البيت معي. هيّا خذيها وعودي بسرعة..

وبعد فترة قصيرة، عادت مليحة خان، وحالما دخلت، قالت:
- أوه يا إلهي صارت خبصة و هرجة!
فهبّ زوجها لإستقبالها، وهو يعرف عمّ ستتحدّث، لكنه تغافل، وسأل:
- هه يا عزيزتي لماذا تأخرت؟ تشوّش بالي وخشيت أن يصيبك مكروه.
وحين وصلت حماها وحماتها؛ رحّبا بها ببشاشة، وتهافت عليها الأطفال، وهي تردّد:
- أتركوني الآن لأتحدث لكم عمّا حدث!
وجالت بعينيها وسألت:
- وأين شكريّة؟!
ولمْ تنتظر الجواب، بل روت الواقعة:
- كانت هناك زوجة ضابط كبير لاأعرفها جيّداً، وكنت قد رأيتها مرّتين أو ثلاثاً في القبولات، وقد اصطحبت خادمتها معها، ولمّا همّت بالمغادرة، لمْ تجدها هناك، وبحثوا عنها بلاجدوى، وقد انحرجت المرأة وتشوّشت كثيراً،وهي تقول: " خطيّه لاتعرف العربيّة؛ فماذا سيحصل لها؟!"
فقال عثمان آغا لنفسه:
- خرّب الله بيتهم.
واسترسلت مليحة:
- وتلفنت المرأة مخبرة زوجها؛ فحضر زوجها الضابط بسرعة، وسارع بإخبار البوليس ودار الإذاعة، وكاد الزوجان يتشاجران على مرأى ومسمع جمهرة القبول، حيث كان الزوج يصرخ في وجه زوجته: " لماذا تأتين بها

إلى القبول والنزهة؟ فمن أين تعرف مثل هذه الجاهلة معنى القبول؟!
كاد عثمان آغا يقرض شفته من شدّة الإنفعال والغضب، ويقول مع نفسه: " أيّها السّافل الوغد، قد يتصوّر الناس كمْ هو شفوق ومتشوّش ومتأثر خشية أن تضيع الفتاة ويحدث لها مكروه! ولايعرفون أن الوغد العاهر متأثر لمأربه الخسيس"!
وقصدت مليحة غرفة النوم لتستبدل ملابسها، لكنها عادت وكرّرت سؤالها:
- أين هي شكريّة؟!
فلحقها زوجها، وراح يلهيها بأسئلته عن مجريات القبول والحاضرات هناك، وبالأخص أم باسل، وراحت مليحة تخبره بحرارة وحماس، وضحكا قليلاً، ثمّ ذهبت مليحة وأخرجت طفلها من الأرجوحة، وشمّته وقبّلته بضع مرّات، وقال لها زوجها أن آسو كان منسجماً ومرتاحاً مع جدّته، بل ونام في حضنها..وحملته مليحة وحين همّت بالخروج من الغرفة تساءلت من جديد:
- أين شكريّة، وما حل بمغصّ بطنها؟ كانت متألمة شاحبة اللون؛ لذلك أرسلتها للبيت.
فمسك زوجها يدها، وقال:
- تعالي اجلسي لأحكي لك شيئاً.
فجلست مليحة، وارتبكت قليلاً، وسألت:
- خيراً..ما الذي حدث؟!
فمرّر زوجها يديه على رأسه ووجهه، وشهق شهقة عميقة وزفر زفرة حرّى، وقال:

- سأحكي لك،لكن لاتقاطعيني، حتى أنتهي ، وبعدها سأفعل ما تقولينه لي، فابقي هادئة ولاتنزعجي.
فعيل صبر زوجته ووهنت، وسألت:
- بالله عليك ماذا حدث؟ لماذا لاتقول لي؟!
- وحياتك الغاليّة لاعلاقة للواقعة بنا، لكنك اسمعيني .
وراح يروي تفاصيل حكاية الفتاة وشكريّة، واختتمها:
- وقد أخذتها شكريّة إلى المرأة المذكورة.
فذهلت المرأة ونهضت وقالت:
- والله لـمْ يكـن ينقـصنا إلاّ أن نـصير مختطفـين وقطّـاع طرق! ثمّ من يجزم أن الفتاة صادقة ولاتكذب؟! فمثيلاتها العاهرات كثيرات؛ وإلاّ كيف يتصرّف هكذا رجل كبير الشأن وصاحب عائلة وأطفال مثل ذلك الضابط؟! كسر الله رقبة شكريّة المجنونة التي جعلت من نفسها فاعلة خير، وتتماكر، وصيّرت نفسها ملاذ الفقراء والشحاذين، بل ترمي كلّ ما تحصل عليه في مواعين الشحاذات والشحاذين..عماها الله..لن تعود إلى هذا البيت حتى لو طلعت روحها!
وصمت زوجها، ولمْ يعلّقْ بشيء لأنه كان يعرف طبعها الإنفعالي،وقد تسبّه إذا ما ناقشها. ونظرت إلى زوجها وسألته بغضب:
- وأنت ماذا قلت؟
فأجاب:
- قلت لها لاطاقة لنا بهذه الورطة. ومن يجزم بصحة حكايتها؟! وقلت لها: " إذهبي الآن إلى هناك، حتى تعود أم جرا، ولاشأن لي في المسألة، ولن أتركها تبقى دقيقة واحدة هنا.

فانزعجت المرأة ودمدمت وهمهمت، فاقترب منها زوجها، وقال:
- حبيبتي الحلوة لاداعي للغضب، وقد غادرت كلتاهما البيت، وإذا شئت أن تعود شكريّة؛ فلتعدْ، وإذا لمْ تشائي أن تعود؛ فلتذبْ ونقذف سبع حجارات وراءها، ثمّ نستقدم خادمة سواها.
فهمست الزوجة بانكسار وكآبة:
- يا لحظي التعيس! فلو لمْ يكن عندنا الضيوف حموي وحماتي والدرويشة؛ لهان الأمر، لكننا من الخبصة لانفرّق بين أيدينا وأرجلنا؛ فكيف يصبح حالنا؛ إذا ما ذهبت شكريّة أيضاً؟!
فسألها زوجها بهدوء:
- حبيبتي حين كنت هناك..هل ذكرت النسوة أنها خرجت مع امرأة أخرى؟ أو كانت معها إمرأة؟
فأجابته:
- هناك لمْ يكن الكلب يتعرّف على صاحبه! من الزحام واللغط.زوقد سألن الخادمات لأنها كانت معهنّ، فقلن: "لانعرف عنها شيئاً، صحيح رأيناها هنا، ولكن ذهبت كلّ واحدة إلى حال سبيلها.." أمّا خادمة البيت فقد قالت: " ومن أين لي أن أعرف أين ذهبت؟ وهل كنت معيّنة حارسة لها؟! وأنا من كثرة أشغالي كنت ناسية حتى اسم أبي!"
وذهبت مليحة خان للجلوس والحديث مع حماتها والآخرين، ولكنْ لمْ يهدأ لها بال، فسرعان ما عادت إلى غرفة النوم ونادت على زوجها، وسألته:

- حسناً ..أين ذهبت شكريّة والفتاة؟ هل دلّتك على عنوان البيت؟ وكيف نجدها الآن؟
فقال بحماس المنتصر:
- ذلك سهل جداً؛ إذا أردت..
ومدّ يده في جيب قميصه وأخرج قصاصة، وقال:
- هذا هو عنوان المحلّة والبيت، وقد طلبت منها أن تزوّدني به؛ لكي أستطيع إيجادها إذا سُئِل عنها.
فسكتت زوجته قليلاً، ثمّ سألته:
- هل أنت مستعد لنذهب ونعرف الأمر؟
فهزّ الآغا رأسه بالإيجاب.
فحملت زوجته عباءتها بيدها، وسارعت بإخبار حماتها وحميها بأنهما سيذهبان لزيارة مريض في بيت قريب ويعودان بسرعة.
وبعد ذهابهما، تبادل الحمو والحماة النظر، وقالت الحماة:
- ماذا دها مليحة فهي مشوّشة جداً؟ والله لقد حدث شيء!
واجتاحت الوساوس قلبها، ورغم أن زوجها كان يطمئنها، أحسّ قلبه بحدوث شيء.
وصلت سيّارة عثمان آغا وزوجته أمام باب دار المرأة حسب توصيف شكريّة، فأوقفها ونزلا منها، ثم طرق الآغا الباب، ثم فتحته إمرأة وسألت:
- تفضلا من أنتما؟
فسألت مليحة:
- أهذا بيت الخالة فهيمة؟
فهزت المرأة رأسها بالإيجاب. وأضافت مليحة:
- قولي لشكريّة جاء أبو جرا وأم جرا.
فقالت المرأة:

- على عيني.. تفضلا بالدخول إن أردتما.
ولكنها ارتبكت، وتوجّهت إلى الحوش ، وقال بصوت عال:
- أبو وأم جرا...أين أنت يا درويش؟ تعال
كانت شكريّة وفيروز قد إختيأتا عند سماع الطرق على الباب وكانتا مذعرتين إذ تصوّرتا الطارق من البوليس، وحالما سمعت شكريّة باسم جرا، نهضت وركضت لإستقبالهما وعانقت أم جرا، وهي تقول:
- أفديك بروحي.
ودعتهما إلى الدخول، ورحبت بهما الخالة فهيمة وكذلك زوجها بحرارة، فدخلا، وسدّا باب الدار، واجتازا الحوش الصغير ودخلا الغرفة، وكانت جيدة متوسطة الحجم، ومفروشة بكنبار وبساط، وفيها مدفأة علاءالدين قديمة مشعولة، ويوجد في إحدى زواياها سرير لنفرواحد، وكانت توجد بضعة كراسي قديمة، وكان بعض الفراش ودوشك مفروش في الجهة الأخرى، وكان هناك قوري وكتلي واستكانات وسلة خبز وبعض المواعين وصينية في طاق. وجلس أبو وأم جرا، رغم ان أم جرا قالت: " الوقت متأخر لايمكننا الجلوس، فقط جئت لأعرف ما الأمر"
فقالت شكريّة وهي تشير إلى فيروز:
- هذه هي الفتاة، وإذا أردت فسوف تتحدث بنفسها. كان الأمر خارج إرادتي؛ فقد شبّ في قلبي حريق، حين كانت تحكي لي قصتها وهي تبكي.
ألقت مليحة نظرة على الفتاة، وزوجها أيضاً؛ فتأثرا وأشفقا عليها كثيراً، حيث لمسا ذبولها وخمودها وخوفها وخجلها ووجهها المصفرّ.

قالت شكريّة:
- عزيزتي فيروز ها هي سيّدتي مليحة التي حدّثك عنها؛ تحدّثي بنفسك، لأنني قد لاأحسن التعبير.
وكرّرت الخالة فهيمة وزوجها الترحيب بالآغا وزوجته.
تقدّم زوج الخالة فهيمة وحاول فتح عينيه الكليلتين سدى،وكان يشدّ رأسه بـ (مشكي= يشماغ كردي) ويبدو قصيراً ونحيفاً في زيّه الكردي، وربّما كان يبدو قصيراً لإنحناء ظهره، وكان بيده منديل يكرّر به مسح وجهه، وتوجّه إلى مليحة وزوجها قائلاً:
- والله منذ أن وقعت عيناي على هذه التعيسة المنكوبة ودمعي يجري.
ورفع يديه المفتوحتين ونظر إلى السّماء داعياً:
- إلهي إنتقم من الظالمين الباغين.
قالت مليحة:
- على حال..ينبغي أن نعود، وتعود معنا شكريّة؛ لئلاّ يسأل عنها أحد، أو يسائلونها.
وهمّت شكريّة تسرع بإعداد نفسها للعودة معهما، فقالت الخالة فهيمة:
- وتبقى الفتاة معنا، ولاتقلقوا عليها، سنبقى بصمت وهدوء؛ حتى يفتح الله باب فرج.
ومدّت مليحة يدها إلى حقيبتها اليدويّة وتوجّهت إلى شكريّة متساءلة:
- هل عند الفتاة نقود؟
فانتفضتالخالة فهيمة تجيب:
- وما حاجتها إلى النقود؟ هي لقمة وتتناولها معنا.
وأضافت ببسمة حلوة:

- سيّدتي العزيزة! الله هو الرازق.
ذهبت شكريّة إلى الفتاة وعانقتها وقالت:
- لاتخافي بعد الآن أبداً.
وربتت على كتف الخالة فهيمة وقالت:
- وهذه ستصبح أمّك.
ونظرت إلى زوج الخالة وقالت:
- والله لايسمح لي قلبي أن أقول: وهذا سيصبح أباك؛ لأن أباك، كما يبدو، كافر وعابد للنقود، في حين أن أخانا الأكبر رجل شهم، وحمداً لله لأن سيّدي وسيّدتي سيستظلاّنك بظلّهما.
ثمّ تودعوا وغادروا. وفي السيّارة حطّمت شكريّة الصمت وتساءلت:
- سيّدتي العزيزة..ألمْ تلمحني زوجة الضابط حين جئتك وأطلبت السماح لي بالعودة إلى البيت؟
ولمْ تُجِبْ مليحة خان في البداية، بل لو كان في وسعها لأطبقت بيديها على عنقها ؛ من فرط غضبها، ثمّ أطلقت (أفّ) انزعاج و برم وقالت:
- وحتى لو كانت قد لمحتك ؛كيف كانت تعرف لماذا جئت وهي لاتعرف الكرديّة؟! فحتى لو انتبهت لك ؛ كانت تظنّ أنك جئت لشغلة تخصّني.
فابتهج قلب شكريّة وقالت:
- حسن إذن أروح لك فدوة.
ولمّا وصلت بهم السيّارة أمام منزلهم، وكانوا على وشك النزول، قالت شكريّة:
- سيّدتي العزيزة..إذنْ لمْ يأت أحد على ذكري، ويقول ربّما ذهبت الفتاة معها.

أسرع السيّد ولطمها وقال لها:
- أسكتي خرّب الله بيتك؛ فمن يسمع تساؤلاتك ويرى تشوّشك، سيعرف بضلوعك في القضيّة، إصمتي ولاتقولي أيّ شيء.
نزلت مليحة خان ودخلت البيت غاضبة وهي تدمدم:
- شوفوا أيّ بلاء يصيبنا!
وبينما كان الآغا يغلق باب السيّارة، أشّر لشكرية وقال لها بهدوء:
- كفي عن الكلام واصمتي.
فلطمت شكريّة رأسها وقالت:
- سمعاً وطاعة..والله لن أتكلّم..عمّر الله بيتكم.
حتى وقت متأخر من الليل، لمْ يكن على بالهم إلاّ الإنتباه إلى جرسيّ الباب والتلفون، فكلّما كان يرنّ أحدهما؛ كانت الهواجس والوساوس تجتاح قلوبهم، وكانت مليحة خان تقول:
- خلّ أبو جرا يذهب أو يردّ .
وكانت شكريّة تحاول بكلّ ما وسعها أن تطيّب خاطر مليحة خان وتبدّد غضبها، فتارة كانت تحمل الرضيع وتلاطفه، وتارة تسارع بأداء الأشغال وتتفقد أحوال الأطفال، وكانت تنتقد كلّه وتحثها على هذا العمل أو ذاك.
وأخيراً انتهت الأشغال، وصمت الآخرون وذهب كل واحد إلى منامه، وعمّ الهدوء جنبات البيت، وقالت شكريّة لكلّه عند ارسالها للنوم:
- نامي..أمّا أنا فأذهب إلى العمة الدرويشة وأبقى معها قليلاً.

وكانت العمة جالسة وقد سدّت الباب على نفسها، وكانت غارقة في الصلوات والدعاء والمناجاة، وسلّمت شكريّة عليها وقالت:
- عمّتي العزيزة! أريد أن تدعي من الله عز وجل أن يوفقني؛ فقد عملت عملاً ما، وأودّ أن تتفضلي برأيك فيه، ولاأدري هل هو جيّد أم سيّيء، لكن من المؤكّد قد ورّطت نفسي وهذا البيت في مشكلة.
وجلست شكريّة وتساءلت:
- وماذا كان في وسعي مقابل هذا الغدر ؟ الحمد لله لمْ يحدث شيء لحد الآن.
وبينما كانت العمة تلف طرحتها حول عنقها، تساءلت باندهاش:
- خيراً ما الخطب؟!
فراحت شكرية تحكي لها كلّ شيء بالتفاصيل وتضيف إليه، رغم ان الحكاية لم تكن بحاجة إلى أيّة إضافات؛ فهي بحد ذاتها كانت تجعل شعرات السامع تنتصب، ويحتقر الإنسان والمجتمع وكل شيء، لكن شكرية كانت تعتقد بضرورتها.
كانت العمة الدرويشة أثناء سرد شكريّة للحكاية تردّد عبارة " أستغفر الله" كثيراً وتلطم رأسها وصدرها، فتعلو خرخشات حليها الفضيّة وخرزها ومسبحاتها ويتردد صداها في الغرفة. وفي الختام سألتها شكريّة:
- بالله عليك يا عمّتي العزيزة هل أخطأت أم أصبت بعملي؟
فوضعت العمّة يدها على فمها، فضلاً عن طرف من طرحتها، وقالت:

- والله يا بنيّتي كتب الله لك سبع حجّات..لقد قمت بعمل خير عظيم بانقاذك لتلك البريئة البكماء.
ثمّ مدت يدها إلى صدريّتها وقالت:
- أنجدك الله وأغاثك يا بنيّتي؛ مادمت أنجدت هذه المذلة الغريبة.
قالت شكريّة:
- بالله عليك يا عمّتي العزيزة إقرئي دعاءً على رأسي؛ لأنني رغم صدقي فيما عملت، ولمْ أفكّر بشيء آخر، حيث اظلمت الدنيا في عينيّ، أراني الآن قد أخذت أشعر بالخوف.
فقالت العمّة الدرويشة:
- لا،لاتخافي ونامي قريرة العين بعد دعائي.
ووضعت يدها على رأس شكريّة وتلت أدعيتها، وبعدها قبلت شكريّة يدها، ونهضت وذهبت إلى غرفتها، حيث ظلت مؤرقة تدور في ذهنها كلمات الفتاة..حتى نامت.

* * *

وفي تلك الليلة نفسها، كان العياط والشجار يطغى على بيتيّ الحام عبدالله صاحب القبول، والضابط ، وحالما اندلعت المشادّة بين الحاكم عبدالله وزوجته؛ هربت خادمتهم إلى بيت الجيران خوفاً. كانت الحاكم يصرخ في وجه زوجته بغضب ويقول:
- أمْ ينته هذا القبول والمبول؟ كلّ يوم تنشغلين منذ الصباح حتى العصر لتذهبي إلى هذا البيت أو ذاك، وتتركين البيت والأطفال تحت رحمة هذه الخادمة الزعطوطة ، والتي ستسبب لنا مصيبة أو عاراً ذات يوم!

وتحدث عن طفلهما الصغير، الذي كادت سيّارة أن تدهسه في ذلك النهار، وكيف كانت الخادمة قد سهت عنه ونسته، وأضاف:

- كيف تخليت عن بيتك وسلمت أمره إليها واعتمدت عليها؟ هل أنت ربّة بيت صالحة وأنت مشغولة تتلفنين منذ الصباح حتى المساء، أو تتمكيجين لتذهبي في المساء إلى قبول هذا البيت أو ذاك ،حيث تتبادل النسوة الكلام البايخ عمّا تلبس هذه وعمّا أشترت تلك؟! وها نحن في مأزرق وورطة؛ فمنذ المساء يتلفنون لي بضع مرّات ويسألونني ويسائلونني عن الخادمة الضائعة، بل جاء الضابط بمفرزة بوليس وفتتشوا المنطقة والبستان ويسائلوننا كأننا ارتكبنا جريمة!

* * *

أمّا في بيت الضابط، فقد كان الشجار قد تجاوز المشادّة والجدال إلى الضرب المتبادل بين الضابط وزوجته بالقبضات والخرمشات والأقداح والصحون والقباقيب والنعال! حيث كان الرجل قد استحال وحشاً ضارياً يجيء ويذهب، يدخل هذه الغرفة، ويخرج من تلك الغرفة، ويضرب كفاً بكف، ويدمدم ويرعد ويزبد:

- لماذا تذهب؟ ما كانت حاجتها إلى النزهة والقبول؟ أماردت أن تفتخري بأن لديك وصيفة، أو خادمة تتبعك أينما ذهبت؟

وكانت زوجته تزعق وتصفق، وتتساءل:

- لابدّ أن أعرف سرّ احتراق قلبك والتهاب النيران فيك؟ هه الأمر يخصك شخصيّاً وكنت مغفلة من قبل والآن اتضح لي؛ وإلاّ فلتذهبْ طلعت عيونها..فبغداد مليئة

بالشغالات والخادمات. هه هل يستلزم الأمر كل هذه الحرب؟
وهزت رأسها هزات ذات معنى، وعلقت:
- لقد عرفت عرفت الحقيقة حقيقتك!
وكانت تجيء وتذهب، يدق قلبها كالطبل، ووجهها يحمرّ ويزرقّ، وتلطم رأسها وخديها،وشفتاها ترتجفان وهي تقول:
- والله لقد كشفت عن شرفك الناصع!
ثم جلست على كرسي من شدّة الإرهاق، وقالت:
- آخ..حقك ..الذنب ذنبي..لمْ أصدق ما قيل لي مرات وكنت أقول: " بعدما يتزوّج الرجل لن يفعل كذا.." ولكن تبيّن لي أن الكثيرين من الرجال تظل عيونهم على غير زوجاتهم.
وكانت أثناء الكلام تقوم وتجلس مراراً، أمّا زوجها فكان يعلق :
- هه ..من شدّة حسدك فعلت كذا. وربّما طردتيها بنفسك، وغداً ماذا أقول لزوجها؟!
فقالت زوجته وهي تعيط في وجهه ووتصفق وتؤشر بأصابعها إشارات ذات دلالات:
- إذن أنا حسودة وأحسد صبيّة خادمة؟ أم انك شرفسز؟ وإلاّ كيف أحسد مسكينة مثلها تحت رحمتي أسخّرها بشتى الأعمال منذ الصباح وحتى ساعة متأخرة من الليل؟! ومهام البيت هي مهامي سواء أكانت تلك الفتاة موجدة هنا أو لا. ولكن لأن جنونك قد جنّ باختفائها ورحت تقلب الدنيا عاليها سافلها؛ فلابدّ من علاقة خفيّة لك معها. ويبدو

أن الوضع لم يعجبها فذهبت، وإلاّ هل هي سجينة هنا وممنوع إطلاق سراحها؟!
ثم زمّت المرأة شفتيها وأخفضت صوتها قليلاً، وقالت بضحكة ساخرة:
- زوجها ؟! لو كان زوجها شريفاً؛ لما سلّم زوجته الشابة الجميلة الغريبة لتعمل خادمة في بيت أناس غرباء؟! ولو كان زوجها حقاً وحقيقة: لكان يسكنها في غرفة وليس في بيت غرباء يعلم الله وحده ما هم، وكان يذهب ويعمل عاملاً أو كاسباً، ويعود في الأماسي جالباً رغيفيّ خبز ليأكلاه بقناعة وكرامة، ويرقدان متآلفين.
وانتفضت واقفة وهي تصرخ:
- واضح أنه لم يكن زوجها، بل هو قوّاد سافل؛ وإلاّ كيف كان قلبه يرتضي أن يعامل نرجسة مثلها هكذا؟!
وظلا على هذا المنوال حتى الهزيع الأخير من الليل، إذ ذهبت المرأة لتهيّء نفسها لترك البيت نهائيّاً في صباح اليوم التالي، وراحت تلملم أغراضها، بينما كان طفلاها يبكيان، وهما في السابعة والرابعة من عمرهما. ولكنها فجأة عدلت عن قرارها وبعثرت أغراضها المحزومة، وقالت لنفسها: " ولماذا أترك بيتي وأدمّر راحتي وراحة طفليّ؟!" وركضت إلى خارج الغرفة وضربت بقبضة يدها اليمنى يدها اليسرى بقوّة وهي تصرخ في وجه زوجها:
- لا، لن أترك بيتي، سأبقى في بيتي وأجثم كالكابوس على قلبك. انْ أذهب معناه أن أفرّغ البيت لك؛ حتى تجلب حبيباتك العاهرات على مرامك، وأنا لاجئة في بيت أهلي يتفجر قلبي قهراً وغمّاً..وكلّما يبك أحد الطفلين؛ أغص

خجلاً في الأرض! لاتفرح بوهمك هذا لأنني سأبقى جاثمة على قلبك.

ومرّت بضعة أيّام على هذه الواقعة، ولمْ يظهر خلالها من يأتي ويسأل أو يذكر إسم شكريّة؛ لأنها كانت قد غادرت القبول عائدة إلى البيت قبل انتهائه بساعتين، وكادت الواقعة أن تُنسى، وقد انغمس بيت الآغا في شؤون الأطفال والضيوف. كانت شكريّة تنهض يوميّاً منذ الصباح الباكر، وتشمّر عن ساعديها وتنطلق في التنظيف والترتيب وإعداد الفطوروغيره؛ لكي تجتذب قلب السيّدة مليحة ورضاها، وتزداد تعلقاً بها يوماً بعد يوم، ولاتتخلّى عنها، فكلّما مدّت السيّدة يدها لشغلة؛ كانت شكريّة تهرع لتنجزها بدلاً عنها وهي تلهج:

- ورأسك ورأس سيّدي لن أدعك تشتغلين فأنا كفيلة بها، فاجلسي وارتاحي.

وعليه فقد استلفتت واجتذبت أنظار حمي وحماة مليحة خان، اللذين مابرحا يمتدحانها ويقولان:

- حفظك الله يابنت ..ماشاءالله ..

وكانت حماة مليحة تكرّرنصيحتها لكنّتها:

- لاتفرّطي أبداً بهذه الشغالة، و داريها،؛ فهي نادرة المثيل، وهي حنون وعطوفة فضلاً عن شطارتها.

وكانت العمة الدرويشة تقيّم شكريّة عالياً؛بحيث كانت أحياناً تتلو أدعيتها وتنفخها نحوها كلّما لمحتها من بعيد.

وكانت تقول عنها:

- قلّما رأيت مثل هذه البنت الطيّبة الرحومة الخدومة المضحية والمؤمنة بالله!

إصطحب عثمان آغا والدته ووالده وعمته إلى طبيب اختصاصي في الأسنان وطبيب مركب للأسنان،حيث عولجت الأم وأُخِذ قالب لفم العمة..كما أخذهم في جولة هنا وهناك. وكانت العمّة قد صغرت شدّة رأسها الكبيرة من تلقاء نفسها، ولفت الطرحة حول رقبتها،حيث قالت:

- إذا ذهبت ألى الطبيب بهذه الشدّة الكبيرة سيرتعب! كما أحب أن أتجوّل في السوق، ولايمكن أن أذهب بهذا الرأس!

وذات صباح، بعد الفطور، إصطحبت مليحة خان حماتها وحماها والعمة الدرويشة إلى أسواق مركز المدينة، حيث توجد دكاكين الأقمشة وإلى (الشورجة) وكانت العمة والحماة تتفرجان على الأقمشة المناسبة للأزياء الكرديّة؛ ممّا أغضبت توقفاتهما (ميرزا احمد) والد عثمان، وكان يقول مع نفسه: " ما أعجب أمر أختي الدرويشة! تريد اختيار الأقمشة المناسبة للصبايا والشابات من بين كل هذه الأقمشة!والله هكذا تكون الدرويشات، وخاصة مع جلجلة وهرير حليّها الفضية وخرزها ومسبحاتها الطويلة، وفوق كل هذا تضع يدها على فمها الأدرد وتتكلم، ولاأحد يفهم ما توقوله!"

ولذا توجه إلى زوجته وقال:

- يا أم عثمان أرجوكما لاتتباطآ ولاتتعبا مليحة..هيّا اختارا القماش النسوي المناسب لعمركما وكفاكما تقليب هذا (الطول= لفة قماش) و ذاك (الطول).

وعليه، فقد سارعت أم عثمان والعمة باختيار وشراء الأقمشة،ثم قصدن محلات بيع الأحذية النسائية، وإذا بالعمة الدرويشة تتوجه إلى الأحذية ذات الكعوب العالية،

وأنزلت زوجاً منها وأعادتها، ومدت يدها إلى زوجين آخرين وقلبتهما، وكانت تقول لنفسها: " والله هذه الأحذية جيدة تزيد قامة المرأة علواً، فلماذا لا ألبس زوجاً منه؟! ولكن كيف أجرؤ على هذا القول؟ سيعيبونني ، فيقول هذا: ما حاجتك إلى هذه الأحذية وأنت تسكنين في القرية؟ ويقول آخر: أنت عجوز وفمك أدرد وترغبين بهكذا حذاء؟ ولايدري أن أسناني تساقطت منذ طفولتي. وهل أنا عجوز؟ والله أن قلبي أشدّ طراوة من شابة في العشرين من عمرها! "

وبينما مدت يدها إلى زوج آخر،إذا بزوجة أخيها يناديها ويوقظها من شرود خيالها:

- تعالي إلى هنا يا درويشة شيخزاده، حيث توجد الأحذية المناسبة للواتي في عمرنا.

فاضطرّت إلى وضع الحذاء ذي الكعب العالي في مكانه، وذهبت إليها، حيث قالت لها مليحة أن تجلس على كرسي، بينما ذهب صاحب المحل ليجلب لهن بضع علب كرتونية تحتوي على الأحذية المناسبة لهن، وفتحها، وكانت أحذية ذات كعوب منخفضة وسوداء اللون، وناول زوجاً منها إلى العمة الدرويشة، وقلن : " جربي لبسها" وبعدما لبستها سألنها: " كيف هي ؟" فأجابت وهي تنظر إلى الأحذية العالية الكعوب: " لابأس بها، ولكن أليس عندهم نوع آخر؟" فانبرت مليحة خان قائلة:

- عمتي العزيزة هذه الأحذية جيدة ومريحة لكنّ والأحذية الأخرى غير مناسبة..

فقالت حماتها مبتسمة:

- هذه الأحذية جيدة جداً، ما أخفها! كأنما أنت حافية!

وتجّهت بالكلام إلى العمة الدرويشة:
- هـذه الأحذيـة ملائمـة لنـا، أمّـا الأخـرى ذات الكعـوب العاليـة، فلاتجينـا، ولا أدري كيـف تمـشي بهـا النـسوة! بعضها لابأس بارتفاع كعوبها، والباقية عالية الكعوب جداً؛ بحيث تبدو التي تلبسها في مشيتها كالتي تصعد سلّماً!
وعندها لم يبق للعمة الدرويشة إلاّ أن تقول:
- والله هي جميلة.
وحين عدن إلى البيت، قالت أم عثمان لزوجها بهدوء:
- لماذا تبدو غاضباً؟ ولماذا أفشلت أختك المسكينة بضع مرات؟
فأجابها:
- والله لـو كانـت أختـي تجـرؤ لإشـترت مـن تلـك الأقمـشة المناسبة للأطفال والصبايا، وزوجاً من الأحذية العالية الكعب. يا لها من إمرأة عجيبة غريبة الأطوار! لقد إخرفت فعلاً!
فقالت لزوجها:
- إنها مسكينة فلتتركوها وشأنها خلال هذه الأيام القليلة التي تصاحبنا فيها، والتي ستعود بعدها إلى القرية والله أعلم متى سنلتقيها ثانية..فلتلبس ماترغب في لبسه.
فقال ميرزا احمد:
- والله لاأدري ماذا أقول؛ لاأحد يفهمها ويعرف حقيقتها، فهي من جهة شيخة دائمة الصلاة ومن جهة أخرى خضراء القلب كصبيّة !
فضحكت زوجته(لطفية) وقالت:
- ماذا دهاك اليوم ركّزت على هذه المسكينة، كأنك للمرة الأولى تنتبه إليها. ألمْ تكن دوما بهذه الأطوار الغريبة؟!

أعتقد أن عقلها قد اختل قليلاً، وينعتون أمثالها بـ (مجانين الدين)!
ففلّ زوجها شدّة رأسه ووضع مشكيه وطاقيّته جانباً، وقال مبتسماً:
- أيّ جنون هذا يا أم عثمان؟! من أين تتعلّق مجنونة الدين أواللادين بهكذا أشياء؟ هل تلبس مجنونة الدين حذاء كعب عال؟!
وانخرطا في الضحك، وعندها جاءت شكريّة تدعوهما
- تفضلا إلى تناول الطعام.
وفي الليل، بعدما انصرف الجميع إلى النوم، ذهبت شكريّة كعادتها في كل ليلة إلى العمة الدرويشة، لكي تتلو على رأسها أدعيتها، وتفتح لها الفأل بمسبحاتها العديدة؛ لأنها كانت خائفة منذ واقعة الفتاة فيروز. وكانت العمة تحكي لها أيضاً عن حياتها في القرية وكيف يحترمونها ويلبون المرضى والمريضات إلى مضيفها؛ كي تتلو عليهم وعليهن أدعيتها الشافية، أمّا من ليس في مقدوره الحضور؛ فيأخذون إليه الماء الذي تتلو عليه الأدعية وتشرب منه رشفة، فيشرب منه المريضفيشفى. وكانت تروي لشكرية أحلامها، إذ تحلم في أغلب الليالي بأنها تحلق في السماء وهي ترتدي زيّ ضابط ، والذي يعني(الملائكة)!!
وكانت عينا شكرية تجحظان جحوظاً، وتسارع بتقبيل يدها مرة تلو الأخرى. كانت شكريّة تستمع إليها بكل جوارحها، بل كانت تأخذ إليها طاسة ماء وترجوها أن تقرأ على الماء أدعيتها وتشرب منه جرعة، ثم تأخذ الماء إلى غرفتها

وتشرب الماء، كما توقظ كلّه، إن كانت نائمة، لتشرب أيضاً منه.
وانتشرت أخبار العمة الدرويشة روداً رويداً بين الجيران عبر كلام شكريّة وكلّه. وذات صباح دخلت إحدى الجارات وإسمها (باكزة) بحجة السلام على ضيوف مليحة خان، التي تعجبتوزمّت شفتيها وقالت لنفسها: " كيف تذكرت ضيوفنا وهم على وشك الرحيل؟! " ولكن من سوء حظ باكزة كانت العمة الدرويشة في الحمّام، وهذا يعني أنها لن تلتقيها في ذلك اليوم. واضطرت إلى الجلوس قليلاً، وتشرب فنجان قهوة، وتتجاذب أطراف الحديث الحلو مع مليحة خان، وتمتدح حماتها الأنيقة اللطيفة البشوشة، غير انّها لم تلمح من تشبه المرأة التي كانت قد وصفتها لها شكريّة.
ونهضت الست باكزة وودعت مليحة و حماتها ، فرافقتها شكريّة حتى باب الدار، وهمست لها في الطريق بوجود العمة في الحمّام، وكان المفروض عليها أن تخبرها مسبقاً بنيّتها في المجيء؛ لكي تدبّر لها الأمر. ورغم ان باكزة عللت خيبتها في لقاء العمة بسوء طالعها، طمأنتها شكرية وقالت:
- لاتغتمّي والله سأجعلها تقرأ على رأسك أدعية لنصف ساعة.، وتمسّده بيدها المباركة.
فقالت الست باكزة:
- والله أحبّذ ذلك كثيراً؛ فمنذ فترة أشعر بانقباض في قلبي، وألمفي كلّ جسمي، وقد راجعت الأطباء بضع مرات وتناولت عقاقيرهم من أقراص ومشروب بلاجدوى. وأنا مؤمنة جداً بأدعية أهل الكرامات ؛ ولذا قصدت الشيخزاده.

ثمّ ودّعت شكريّة وغادرت، فسدّت شكريّة الباب ، وعادت وهي تبتسم وتحدث نفسها:" صدقتك ان جسمك يؤلمك، لكن متأكدة بأنك تبتغين من أدعيّة العمة فتح حظك للزواج" وهزت رأسها وقالت:" كل شخص يعرف على قدر حاله"!

* * *

وعند وقت العصر، طُرق الباب، فإذا بها زوجة صاحب دكان من جيرانهم، قلّما تزورهم في السنة مرّة! وبعد السلام والتحيّة والترحيب والسؤال عن الأحوال، جلست ،لكنها كانت في غاية الكآبة والحرج، وبعد قليل، إسترخصت من مليحة خان أن تنفرد معها في إحدى الغرف ؛ لتقول لها بضع جمل. فقالت مليحة: " تفضلي..." ولكنها خلال المسير إلى الغرفة ،كانت مذهولة ومرتابة ومتشوّشة؛ تفكّر في واقعة الفتاة والبوليس من جهة ومن جهة أخرى باحتمال ارتكاب ابنتها أو أبنها أو زوجها لفعل مشين!

وبعدما دخلتا الغرفة وجلستا، قالت مليحة خان بتلهف ورهبة:

- تفضلي ..تكلّمي..

قالت المرأة بخمد وكآبة:

- أطلب المعذرة لإزعاجك وإلهائك عن أشغالك.

ولولا العيب لصرخت مليحة في وجهها: " أسرعي بالكلام فقد حطّمت قلبي قلقاً، حطّم الله قلبك" ولكنها بالعكس رحبت بها من جديد وقالت:

- ألف مرحباً بك تفضلي ماذا تريدين؟

وتألق وجه المرأة قليلاً، وتوجهت إلى مليحة خان قائلة:

- والله لاأدري كيف أحكي لك! كما تعلمين عندي ثلاث بنات وليس لي ولد، وأهل حميّ من عشائر الكوت والعمارة، ويهمهم جداً أن يكون لكنّتهم أولاد، لا بنات...

وعندها إنفرجت أسارير مليحة القلقة الخائفة من قبل؛ فتنفسّت الصعداء، ونطقت في قلبها بـ (الشهادة)! وشجّعت المرأة:

- تفضلي أكملي...

فقالت المرأة

- ويتصوّر أولئك العشائريّون أن المرأة مخيّرة في أن تنجب ذكراً أو أنثى!

وأطلقت زفرة حارة، وقالت:

- بالله عليك مالفرق بين الولد والبنت؟ فكلاهما فلذة كبد الأم، ولكن إذهبي واسأليهم!

فاستمعت مليحة خان إليها بوجه بشوش، وضحكت وشاركتها الكلام:

- فعلاً كما تفضلت هكذا يفكّر بعض الناس، لاسيّما العشائريّون، ولكن مافرق بين الولد والبنت في هذا الزمان، فكلاهما سيكبر ويدرس ويتخرج ويتوظف وينال الراتب، ولافرق بينهما لدى الأبوين إلا بالطاعة والرحمة، والأحبّ منها من يفرح قلبيّ أبويه.

ورغم فحوى هذا الحديث، ظلت مليحة خان في حيرة ؛ إذ ما علاقتها بقضايا الإنجاب، فلا هي طبيبة، ولا زوجها، ولاهي أكثر معرفة وخبرة من المرأة البغداديّة أصلاً، فتساءلت مع نفسها:"يا إلهي ماذا تبتغي هذه المرأة؟!"

وعندها توجهت المرأة إلى مليحة خان، وقالت:

- ولذا سأكون شاكرة جداً لك؛ إذا سمحت لي بلقاء عمتك الشيخة لتتلو عليّ دعاءً ؛ فقد سمعت بها كامرأة مباركة ذات كرامات، وأدعيّتها مجابة من الله تعالى.
فتعجبت مليحة خان كيف عرفت هذه المرأة عمّتها وكراماتها، وقالت وهي تبتسم:
- على عيوني..بل تعالي يوميّاً لتتلو أدعيّتها عليك، حتى تغادر..وإنشاءالله ستلدين ولداً. وعمتنا هذه إمرأة في غاية البساطة والنقاء والإيمان.
ومسكت مليخة خان يدها وقادتها إلى حيث تجلس العمة الدرويشة، وقالت:
- عمّتي العزيزة..هذه المرأة جارتنا وقد جاءت لتتضرّعي إلى الله تعالى أن يرزقها بولد، لأن عندها ثلاث بنات، ويطالبها أهل زوجها بولد.
كان أمام العمّة إستكان شاي، فرفعت عنها يدها لتخفي بطرف من طرحتها فمها الأدرد، ثمّ قالت:
- مرحباً بها..قولي لها إن شاء الله ستُرزَق هذه المرّة بولد.
فترجمت مليحة خان ماقالته العمّة للجارة، التي رمت نفسها في الحال على يد العمّة وقبّلتها، وقالت:
- بالله عليك هل سيحصل هذا؟!
فضحكت العمّة خفية من وراء طرف طرحتها، وقالت مخاطبة مليحة:
- أخشى أن يحوّلن هنا مثل قريتنا! إبنتي كلّ شيء بيد الله، فمن هي العمّة وجدّ العمّة؟!
فعلّقت مليحة على كلامها:

- صحيح بيد الله، ولكنّك أيضاً إمرأة مسلمة مؤمنة وطاهرة؛ عسى ولعلّ أن يستجيب الله لدعائك، فلاتكسري قلبها؛ مادامت لاذت بك.
فقالت العمّة:
- حسناً تعالي يا ابنتي
فجاءت المرأة وجلست أمامها، فوضعت العمّة يدها اليمنى على رأس المرأة، بينما ظلت الأخرى ماسكة بطرف الطرحة المغطي لفمها، وراحت تتلو أدعيتها المتتالية بهدوء وهمس، وكلّما أنهت دعاءً كانت تنفخ على رأسها. كانت روائح طيّبة تفوح من العمّة ، وهي روائح السنبل والقرنفل والريحان وغيرها ممّا كانت تحمله دوماً في جيبها، وما تتقلّده في عنقها، بل كان حتى فمها الأدرد يفوح برائحة طيّبة؛ ولذا كادت المرأة أن تغطّ في النوم، خصوصاً وان الغرفة كانت دافئة وهادئة. وبينما كانت العمّة مشغولة بتلاوة أدعيتها، ذهبت مليحة خان لتحكي عمّا يحصل، ثمّ عادت إلى العمة والمرأة، فوجدتهما على الوضع نفسه، فقالت مع نفسها: " ألمْ تنته الأدعية؟! يبدو ان المرأة قد طاب لها الوضع!" في حين كانت يد العمة المسكينة قد ارتخت وجف حلقها والمرأة ساكنة بلاحراك! ومن ثمّ إختتمت العمة آخر دعاء بصوت عال نوعمّا، وربتت على ظهر المرأة، وقالت:
- أدعو الله يا ابنتي أن يقق مرادك فترزقين ببضعة أولاد.
فقبلت المرأة يدها، ونهضت، وظلت تلهج بعبارات الشكر حتى خروجها من البيت إلى الزقاق. وعندها ذهبت مليحة خان وتساءلت بعجب من شكريّة:

- ما قصّة هؤلاء النسوة اللواتي يجئن ويتكلّمن عن العمة والأدعية؟! ومن أخبرهن بها؟!
فقالت شكريّة مبتهجة:
- والله يا سيّدتي سألتني الجارات بضع مرّات من تكون هذه المرأة الشبيهة بالدرويشة؟ فتحدثت قدسيّتها وكراماتها.
وانبرت كلّه أيضاً لتشارك في الكلام، فقالت:
- قبل أيّام جاءت إحدى صديقات جيمن إلى هنا، وعند ذهابها كانت قد أخبرت صديقاتها بوجود إمرأة ذات رأس ضخم هنا؛ فتشاجرت جيمن معها ومعهن لتعليقاتهن السخيفة، ووضحت انها عمّة أبيها. وهكذا تتالت المشادّات والشجارات، فكنّ يقولن لبعضهنّ: " هيّا بنا نهرب؛ ففي بيت جيمن آكلة لحوم بشر!" وكنا أنا و جيمن خان نضرب كلّ من نظفر بها ضرباً مبرّحاً.
فلطمتها شكريّة ونهرتها قائلة:
- أسكتي يا بنيّة .زألمّ أقلْ لك لاتتحدثي عنها؟

* * *

كان اليوم التالي هو الجمعة، وعند المساء إستأذنت شكريّة من سيّدتها:
- سيّدتي العزيزة.. أريد أن أزور الفتاة وأطمئن عليها في ذلك البيت الفقير.
فقالت مليحة خان:
- حسناً ..إذهبي ولكنْ إعتني بنفسك وإيّاك أن تذهبي هنا وهناك فتورّطيننا في ورطة أخرى!
فقالت شكريّة وهي تضحك:
- لا والله سيّدي العزيزة لن أذهب إلى أيّ مكان آخر ولن أطيل البقاء، وسأتلفلف جيداً، وأسارع في العودة.

وودّعت سيّدتها وذهبت.
جلست مليحة خان مع حماتها وتجاذبتا أطراف حديث متشعب، وخاصة كان ميرزا احمد خارجاً مع إبنه،ثم ورد ذكر الشغالات والخدم والفتاة البهدينانية وشكريّة. وعندها تذكرت الحماة وتوجهت بالكلام إلى مليحة:
- ذات زمن بعيد، وكنت متزوجة حديثاً، حدثت لي حادثة مع خادمة..
فسألتها كنّتها بفضول:
- ماهي بالله عليك؟ ولماذا لمْ أسمعها منك؟! إحكيها لي بالله عليك.
فاستعدت الحماة ملفلفة نفسها ومعدّلة لشدّة طرحتها وقالت:
- حين تزوجت حبلت بعد ثلاثة أشهر بعثمان العزيز، وكنت صغيرة العمر نحو ست عشرة – سبع عشرة سنة، ولمْ تكن لي الطاقة لتدبير شؤون المنزل، خصوصاً وانني كنت مدللة جداً عند أمي وأبي وجدتي، بحيث لمْ يدعني أحد أن ألمس شيئاً.
وضحكت لطفية خان واستأنفت:
- بل كانت أمّي هي التي تمشّط شعري حتى وأنا مقطوعة مهر.
ولمست شعرها وعذارها وقالت:
- كان شعري طويلاً وكثيفاً؛ ولذا كانت أمي وجدتي تغسلانه.
فقالت مليحة خان:
- بلاحسد ، شعرك الآن جميل؛ فكيف كان آنذاك؟!
فقالت حماتها:

- كان هذا الشعر يسبب لي الإزعاج أحياناً، فقد انحنت رقبتي من ثقله، وفوق ذلك لم يدعني أبي وجدتي أن أقصره، والآن لنعد إلى حكايتنا. ولم تدعني أمي وجدتي وعمة لعمك وحيدة، وكنّ يعتنين بالبيت، بالإضافة إلى إمرأة كانت تطبخ وتخبز لنا، وصبي شبه مخبول ومخلص كان أبو عثمان والعمة قد ربياه منذ الصغر، وكان يتسوّق لنا ..كان بيتنا مزدحماً دائماً يكتظ بالأقرباء والمعارف والضيوف. وكبر عثمان العزيز، وصار عمره سنتين وكان يملأ البيت بهجة وسروراً، وحملت من جديد.

وضحكت وغطت فمها، وقالت:

- آنذاك لم يكن الناس يعرفون طرق وأساليب منع الحمل من أقراص وإبر وغيرها، كما كنت صغيرة بلاتجربة.

فضحكت كنّنها وأكملت كلامها:

- والله الآن تعرف بنت الثانية عشرة في هذه المسائل أكثر من المرأة آنذاك!

فقالت حماتها:

- بل الآن يقررن بأنفسهن، فهناك مثلاً مخطوبة وتقول: "لن أنجب أكثر من ولد وبنت" وإذا أردت الحقيقة؛ فهنّ محقات، لأن الحياة تعقدت وصارتدبير المعيشة صعباً، وحتى الحصول على شغّالة غيريسير، ثم ان الأم والأخت والقريبات مشغولات بشؤون بيوتهن، أمّا قديماً فكان أغلب الناس بلاعمل، والآن أغلب الناس موظفون وموظفات..

وضحكت لفية خان وقالت:

- لقد تغيّرت الدنيا كثيراً يا ابنتي العزيزة.زولأعد إلى حكايتي...ذات يوم من أيّام الشتاء، كما تذكرت الآن ،كنت واقفة في الطارمه، وإذا بطرق على باب الحوش، فهبّ

(خوله) وفتحه، وإذا بصبيّة في الخامسة- السادسة عشر تخل، وكانت بيضاء مكتنزة خفيفة الدم، شادّة رأسها بطرحة، ومشمّرة عن ساعديها، وبدت كما لو انها قد أخرجت يديها للتو من الماء والوغف(الزبد) وتساءلت بعد التحيّة:

- ألمْ يأت ديكنا إلى حوشكم؟

فسارع خوله يجيبها:

- أيّ ديك يا أختي؟ ها هو الحوش فتشيه.

فابتسمت الصبيّة وقالت:

- حسناً .زإعذروني؛ لأن الديك ركض فوق السطح، فظننته نزل في حوشكم.

وودعتنا وذهبت.

وهزت لطفية خان رأسها، وقالت:

- إيه..الدنيا شبيهة بشاشة السينما تمر عليها المشاهد سريعة. لاأريد أن أدوّخك..قلت لنفسي بعد ذهاب الصبيّة: " بنت منْ تكون؟وفي أيّ بيت تشتغل؟ يا لهم من محظوظين لأن عندهم هذه الشغالة النظيفة النشطة"

فناديت خوله وسألته:

- عزيزي خوله إبنة من تكون هذه البت، وفي بيت من تشتغل؟

فأخذ خوله مصّة من سيگارته ونفث الدخا، وقال لي بلسانه المتأتيء:

- مرحى لك! ستتعرفين على الجيران بعد سنتين وثلاث!

ونادى أمه العمة فاطمة، التي كانت قد ربته وقال:

- تعالي يا ماما خالتي تسأل عن البنت التي جاءت الآن وذهبت.زمنْ هي ومن أين أتت؟!

وتحسّرت لطفية خان وأطلقت زفرة حرّى وقالك
- رحمك الله يا عمتي العزيزة .زيالها من إمرأة طيبة وشفوقة كمْ كانت تحبني! فقالت العمة فاطمة: " أخبار هذه البنت عند جارتنا (خديجة خان) والتي جاءت بها منذ سنتين أو ثلاث من إحدى القرى الشمالية، وربتها، وهي أرملة منذ سنوات طويلة، ولها ولدان أحدهما تخرّج معلّماً، والثاني مازال يدرس. جزاها الله خيراً؛ فهي حقاً إمرأة محترمة ومحسنة" فضحك خوله فبرزت أسنانه المسدّة، وقال معقباً: " هه! بيننا فقط داران؛ وتسأل من هي هذه البنت!" فقلت:
- لمْ أرها من قبل؛ فكيف أعرفها؟!
وانبرت عمتي فاطمة وقالت:
- تخشى خديجة خان عليها، فقلّما ترسلها إلى خارج البيت؛ خوفاً من أن يغريها آخرون فتترك بيتهم.
كانت مليحة خان تستمع إلى الحكاية التي ترويها حماتها بكلّ جوارحها، ومابرحت تردد:
- حكايتك مشوّقة؛ فهلاّ إسترسلت..عمّا حدث لاحقاً
فقالت حماتها:
- وبعد مضيّ أشهر، سمعنا ذات يوم لغطاً وصخباً في محلتنا، ونوديت العمة فاطمة؛ لكونها كانت صديقة جارتنا خديجة خان منذ الطفولة، في المحلّة نفسها، لكن بيت أبي كان في محلة أخرى؛ ولذا لمْ أكن أعرف أهل محلتهم.
وأسرعت العمة بالذهاب وعادت بعد ساعة، وقالت:
- حدثت خبصة حيث طردت خديجة خان تلك الفتاة.
فانتفضت حال سماعي الخبر، وتساءلت:

- البنت التي جاءت إلى بيتنا؟! كيف سمح لها قلبها بطرد تلك الفتاة ؟! ليتها تأتي إلى بيتنا.
فتساءلت مليحة:
- وماذا كانت حاجتكم إليها وأنتم أسرة كبيرة؟!
فأجابتها حماتها:
- صحيح، ولكن مع ذلك كنت مثقلة بالأشغال الصغيرة؛ لأنني كنت أستحي أن أنادي على عمتي: "هاتي لي تلك الوصَل، أو أسكبي ماء الطشت الذي غسلت به طفلي، أو ناوليني ذلك كتلي الماء الحار" وكنت أيضاً أستحي ، بل ولايسمح لي قلبي أن أسخر جدتي، التي كانت تتردد على بيتنا وبيت والدي، كما أن طباختنا وخبازتنا كانت إمرأة كبيرة العمر؛ ولكل ذلك كنت بحاجة إلى بنت صغيرة يمكنني الطلب منها بلا خجل أن تساعدني في تلك الشغلات الصغيرة.
وضحكت لطفيّة خان وهي تغطّي فمها وقالت:
- آنذاك كان الصغار يحترمون الكبار غاية الإحترام، بالعكس من هذا الزمان، وكان الصغار يحسبون ألف حساب للكبار، فأنا نفسي رغم انني كنت محبوبة جداً عند أمي وجدتي وأبي، بحيث لو كنت أقول عندي صداع؛ كان البيت ينخبص ...ولكن حين كان أبي يتواجد في البيت؛ كنت أمشي بهدوء؛ لئلاّ يسمع صوت قبقابي، بل كنت أستحي أن أتناول الطعام أمامه.
فهزت مليحة يدها وقالت:
- هَيْ هَيْ . والآن تتزوّق البنات على مرأى من آبائهنّ!
فشهقت حماتها شهقة عميقة وزفرت متحسّرة، وقالت:

- وليت الأمر يقتصر على التزوّق...! قسماً بالنبي محمد(ص) لمْ أكن أعرف ما معنى التزوّق حتى يوم زفافي، بل لمْ أتزوّق غير فترة قصيرة بعد زفافي، وسرعان ما رميت الحمرة والبودرة ، وقلت لنفسي أيّ جمال إصطناعي زائف هذا! إذا كانت هنالك من تدعي الحسنوالجمال فلتجرؤ على الخروج بعد الحمام بلا تزوّق وماكياج، وعندها سيتبيّن جمالها من قبحها. هناك جميلات أصلاً يا بنتي لكنّهن يقبّحن أنفسهن بالماكياج المتطرف! وأما أحتقر صاحبات الشفاه القرمزيّة كأنّما إلتهمن لحوم الرجال!

فقالت كنّتها:

- لاأدري ماذا أقول..كل تلك المواد يصنعونها لخدع النساء والتجارة الرابحة، والعجيب أن غالبيّة النساء يستعملنها رغم معرفتهنّ بمدى أضرارها الصحيّة، فهي مؤذيّة لبشرة الوجوه، وتعجّل بترهّل الجلد، وتؤدي الأقلام والكحل إلى العمى أحياناً.

فقالت الحماة:

- حمداً لله إنك لاتحبّذينها كثيراً.

فضحكت الكنّة وقالت:

- أتدرين أن الماكياج أنسانا الحكاية؟! بالله عليك يا عمّتي العزيزة أكمليها.

فقالت حماتها:

- صدقت..وأين وصلنا؟!

أجابتها الكنّة:

- عند حاجتك إلى شعّالةصغيرة العمر؛ لأنك كنت تستحين تسخير النسوة الكبيرات.

مرّرت لطفية خان يدها على وجهها، وعدّلت عصابة رأسها، وسعلت سعلة خفيفة وقالت:
- عندها قلت لعمتي ليت الفتاة كانت تأتي إلينا، وسكتت العمةقليلاً، ثمّ قالت: " أخشى أن تزعل خديجة خان علينا" ثمّ أضافت مستدركة:" ولكنّها تطردها بالتأكيد. سأقول لها بهذا الخصوص، والناس يمتدحون الفتاة فهي نظيفة وشاطرةنشيطة"
وضحكت لطفيّة خان وقالت:
- فأخذت ألح وأصر بلجاجة الأطفال على العمة أن تذهب وتسترخص من خديجة لإستقدامها؛ لئلاّ تفلت من أيدينا. لكنني إستدركت وسألت: " وماذا فعلت الصبيّة لتطردها؟" فتمتمت العمة وغمعمت قليلاً، ثمّ قالت: " تقول: جرّتها من شعرها وأخرجتها من فراش ابنها الكبير بضع مرّات لحدّ الآن " وهي منزعجة لذلك، وبكت عندي وقالت:" لقد ضحيت بشبابي ومسرّتي سنيناً على هذين الولدين، وقيت أرملة لمْ أتزوّج، وإذا بولدي يتعلّق بهذه الفتاة، وأنا أخشى الله، وجميعنا عبيد وعباد الله ولافرق بيننا، ولكنني لاأحبّذ أن يتزوّج ولدي الذي هو كلّ أملي ومناي من بنت يعرف الناس كلهم أنها كانت شغّالتي وخادمتي، بل أود أن أزوّجه من فتاة من صنفه ومستواه، فيعلو في عيون الأصدقاء والأعداء؛ وإلاّ كمْ ولداً عندي ماعداهما لأفرّط بهما؟!"
فذهلت وسألتها:
فصدمت وذهلت وسألتها:
- واه! أيكون ما قالته خديجة خان صحيحاً؟! حسناً عمتي العزيزة مهما كان الأمر، لاتدعي أن تفلت تلك الصبيّة من أيدينا.

فنهضت العمة وذهبت ثم عادت بعد نصف ساعة، فهرعت أستقبلها، فقالت وهي في الطريق: " قالت خديجة خان : أنا راضية، ولن أزعل أبداً؛ مادمت قد أخرجتها من بيتي، ولماذا تذهب إلى بيت آخر"

فعانقت العمّة من شدّة الفرح وقبّلتها، وبعد ساعتين ذهبت مرّة أخرى، ثمّ عادت تصطحب الصبيّة مع صرّة أغراضها. وتغيّر وضع بيتنا بوجود الصبيّة خلال أسبوع، وكنت جذلى طائرة من الفرح، وكانت الصبيّة مدمنة على الشغل قلّما تجلس وتستريح، وكانت مسرورة، وتحيل البيت دوماً إلى روضة ورود، وكانت نفسها نظيفة أنيقة وجميلة، وبارعة في ترتيب وتنظيم أغراض وأشياء البيت؛ حيث نظمته كالمغازة من الدولاب والكنتور مروراً بالأفرشة حتى الملابس والمكواة وحاجيات الأطفال..ولاأدري عمّ أحكي لك! وبعد فترة لمْ تعد تدع أحداً يمدّ يده لاختيار ملابسه عند استبدالها؛ فمثلاً كانت تقول لي: " حين تذهبين إلى الحمّام أخبريني بالملابس المطلوبة لأجلبها لك، ولاداعي أن تبحثي عنها بنفسك فتخربين ترتيبها" بل حتى عمك ما كان له أن يمد يده إلى شيء؛ حيث كانت تجلبه بنفسها. كانت دوماً ومنذ الصباح الباكر تهيّء الملابس المكويّة والمنديل والجواريب، وتضعها قرب فراش عمك قبل خروجه من البيت..والله لمْ أر مثيلة أونظيرة لها لحد الآن. ولكنّ مانغصّ علينا الوضع الهانيء هو حسد وغيرة الخالة(منيجة) طبّاختنا وخبّازتنا، التي حقدت عليها؛ حسداً من المديح الذي حباها الجميع، فكانت الخالة منيجة تستفزها في كل سانحة؛ فتتشاجران.

ثمّ وقعت لطفيّة خان من شدّة الضحك على ظهرها، ورحت تستطرد :
- وحينذاك شاعت أغنية(يا ناعمة يا ناعمة كل جسمك ناعم) وكانت الخالة منيجة نحيفة(جلد وعظم) وكانت الصبيّة واسمها(زيرين) تحمل طفلي العزيز حمه وتأخذه إلى نافذة المطبخ،وتجعله يردّد ما علمته بالعكس (يا ناحلة يا ناحلة أعضاء جسمك أحجار قاحلة) فكانت الخالة منيجة تخرج وتطاردها بالكفكّيروتسبّها: " يا سافلة أنت التي علّمتيه هذه العبارات.." وتفر زيرين الحاملة حمه إلى الزقاق.. وكان هذا المشهد يتكرر باستمرار.
وكانت عندنا غرفة فوق طارمة باب الحوش، فكانت الصبيّة تنقل إليها المزيد من الشراشف وأغلفة الدواشك والمخدات والملابس،وهي بأنها تكويها بعدما ننام نحن، وكنا فرحين بها ونمتدحها ونكاد نجن من إعجابنا بها، بل كانأقرباؤنا ومعارفنا وضيوفنا يحسدوننا في بواطنهم لوجود تلك الفتاة لدينا. وكانت جدتي إمرأة عاقلة وحكيمة خبيرة بالدنيا ومافيها، وراحت خلال الأيام التي تزورنا فيها تتمتم وتدمدم مع عمتي متشككتين بتصرف الفتاة التي تجمع تلك الأشياء وتصعدها إلى الغرفة الفوقية ؛ بحجة كويها بعدنوم الجميع. فسألته جدتي وعمتي ذات يوم:
- بنتنا ماهي قصة هذا الكوي المتواصل كل ليلة؟! ألا تكفي ليلة في كل بضع ليال؟! أما تتعبين من السهر؟ أما تحتاجين إلى الراحة؟! فلتنامي قليلاً.
فأجابتهما:
- هذا شغلي أنا ولاحق لأحد بالتدخل فيه.

فزاد جوابها من شكّهما في تصرّفها، وربطتا سلوكها بإبن خديجة خان، ولأن الفصل كان شتاءً، والمطر يهطل ليلاً، ويدوّي هزيم الرعد، والعواصف تهبّ؛ فلمْ تستطيعا مراقبتها جيداً، وهما عجوزان. وكانتا قد أخبرتا أمي دونأن أعرف، لكن أمي من فرط انشغالها بشؤون عائلتها وبعدها عنّا لم يكن في مقدورها أن تتابع المسألة وتحقق فيها.

كانت الفتاةزيرين قد أظهرت إعجابها بـ (خوله) بأنه شاب رائع ومن المحتمل أن تتزوّجه؛ فأصبح خوله حماراً مطيعاً ينفذ كلّ طلباتها وأوامره، ويناصرها في كلّ ما تقول، وطالما يتشاجر من أجلها مع جدتي وعمتي ، ويعادي الخالة منيجة ، وكان يخفي زلاّتها وهفواتها ويدافع عنها قائلاً: " دعوا المسكينة وشأنها، أما يكفيها التعب من الشغل بحيث تكادأن تموت؟" ودارت الأيّام وحلّ الصيف ، وراح بعض الناس يصعدون على السطوح، وينامون داخل الأسيجة القصبيّة والكلل، وبعضهم الآخر ينامون في باحات الأحواش ،وكنا منهم. كان حوشنا كبيراً ومريحاً، يشتمل على أشجار وشجيرات الفواكه ومنها التين والعنب. وكانت العمة والجدة والخالة منيجة يفرشن أفرشتهن في ركن من الحوش، حيث ينمن، بينما كان خوله يصعد لينام فوق السطح. وعندها لمْ تعد الفتاة تسهر بحجة الكوي، وإنما بحجة غسل الملابس والشراشف والأغطية، فطالما كنا نستيقظ على نثيث الملابس المبتلة وهي تشرها على الحبل، وطالما غضب عمك عليها، ويقول لها: " بنتي إختلط عليك الليل والنهار..لماذا لاتنامين أيّتها التعيسة فالساعة الآن الثانية بعد منتصف الليل وأنت تغسلين الملابس وتشرّينها؟!"

وحدث أن فضح الصيف مخطط زيرين، حيث اتضح للعمة والجدة، إذ كانت بعد الإنتهاء من تلك الأشغال ونوم الجميع، تصعد السلّم إلى السطح، حيث تعبر على كرش خوله البطل وتمضي إلى أحضان إبن خديجة. أمّا في الشتاء فكانت تكوي الملابس في الغرفة الفوقانية وبعدها وبعد نوم الجميع كانت تطفيء الأنوار في الهزيع الأخير من الليل، وتذهب إليه. ولكن من فرط حبي لها، لم يفلح أحد بنبذها من عينيّ، إذ كنت أقول ليست كما تصوّرونها، ولم أكن أتصوّر وجود هكذا فتاة وقحة وجسورة تدمّر بنفسها سمعتها وتخدش حياءها! ومضى الصيف وأقبل الخريف، لكنه كان حار المطلع. وذات يوم بدت زيرين شاحبة وقالت: " أنا مريضة" فأشفقنا عليها وقلنا: " إذهبي نامي في غرفتك لترتاحي.." وتأثرت لحالها كثيراً، وزرتها غيرمرّة وأخذت لها الشربت، وقدم لها الغداء، ولكن إنحلالها كان يتفاقم، وكانت ترتاد المرافق كثيراً، وساءت صحتها أكثر في اليوم التالي، وكنّا متأثرين وقلقين عليها، وكان خوله لايقر له قرار، يكرّر عليها: " هيّا استعدي سأجلب حنطور وآخذك للمستشفى" وكنت أقول لها: " إذهبي إلى الطبيب فعيادته قريبة " وكانت تجيبنا دائماً : " لاتقلقوا سأطيب " وعند الظهيرة زرتها من جديد.

وتلمسّت لطفيّة خان وجهها، ثم صدرها، وتوجهت إلى السماء، وقالت:

- إلهي التوبة..أبعد هكذا شرّ عن أولادنا وبناتنا وعن الجميع.

واستأنفت الحكاية:

- وعند دخولي الغرفة أذهلني امشهد الفتاة، والذي مازالت تفاصيله شاخصة في ذاكرتي بعدعشرات السنين، فقد كانت الفتاة شبه ميّتة متخشبة مصفرّة الوجه، تحتها بركة دم، والذباب يتجمع عليها؛ فانتفضت كالمجنونة، وأجهشت في البكاء، وناديت جدتي وعمتي والآخرين، فهرع الجميع، وحملوها بسرعة ووضعوها في سيّارة أو حنطور، لاأتذكر بالضبط، ونقلوها بسرعة إلى المستشفى. وظللت أبكي عليها، لكن العمة والجدة كانتا تدمدمان وتهمهمان وتسبانها فيما بينهما، رغم تأثرهما عليها كإنسانة. كنت منذهلةمن مشيئة الرب؛ كيف انهارت هذه الإنسانة الجميلة النظيفة والنشيطة في سويعات، وفقدت القدرة على هش الذباب المتراكم عليها، في حين كانت قبل يومين تنفض نفسها بأنملة ويفوح منها عبير الورود؟!

وارتشفت لطفية خان بقيّة الشاي في الإستكانة، وقالت:

- وبعد ساعتين عاد خوله عابساً مبرطماً وبدا غاضباً، فاستقبلته بسرعة وسألته:

- بالله عليك يا خوله العزيز ماذا كان مرضها؟

فأجابني:

- ولماذا تشوّشين نفسك ؟!

ووقعت لطفية خان من شدّة الضحك على ظهرها، وقالت:

- كان خوله يتأتيء أصلاً ، وأخذ يتلعثم من شدّة الغضب؛ فصار يفأفيء، وأضاف:

- إن شاءالله تفقس عيونها! كلبة بنت الكلب عاهرة تبيّن أنّها أجهضت! جللتنا بالعار في المستشفى!

وخرجت الخالة منيجة وقالت بشماتة:

- تنوّرت عيناك ! أنسيت كيف كنت تدافع عنها، وكانت تقفز على بطنك وتذهب إلى عشيقها، وكنت تغطّي عليها، وتقول لي أنت تحسدينها وتستفزينها؟!

ولأن قلب خوله كان طافحاً بالغضب، بعدما انكشف خدع زيرين له، حدّ تسخيره لأداء أشغالها، ثم ظهرت علاقتها الحميمة بآخر؛ فانتفض في وجه الخالة منيجة التي عيّرته، وقال:

- ماذا دهاك؟ متى كنت أدافع عنها؟ كلّ ما هناك كنت أقول إنها حرمة خطيّه تشتغل لنا وتخدمنا، لماذا أنت متحاملة عليها إلى هذا الحدّ وتؤججين النار تحتها؟!

فقالت الخالة منيجة:

- حسناً ...وضعت تحتها النار، فاذهب واشتر لنا الجكليت بمناسبة سلامتها!

فانفجر خوله كالبركان وصرخ في وجهها:

- ولماذا أشتري أنا لك الجكليت؟!

ودمدم وشتمها متمتماً، وذهب إلى غرفته.

وبعد ثلاثة أيّام خرجت زيرين من المستشفى، فآخذتها إمرأة خيّرة كانت قديماً حاضنتنا وتعيش في بيت أبي، وسلّمتها لبيت إحدى أخواتها لتعيّشها لوجه الله. ولمّا سمع عمك بالقصّة غضب وانزعج كثيراً، وتشاجر مع الجميع وتساءل: " لماذا لمْ تخبروني منذ البداية وكنتم تعرفون سلوكها؟!" فلمْ أجرؤ على القول أن يعيدوها إلى بيتنا، رغم انني كنت أرنو إليها. وظلت هناك بضع سنين، ومن ثمّ زوّجوها لشاب عسكري فقير من معارفهم، وكانوا قد قالوا له بأنها أرملة شايب زوّجتها منه زوجة أبيها في القرية،

لكنه مات بعد شهر؛ فترمّلت. جزاهم الله خيراً؛ لأنهم غطوا عارها، وحموا ناموسها.
ثمّ هزت لطفية خان رأسها وقالت:
- من المؤسف جداً أن تكون مثل تلك الشابة الحسناء الشاطرة متهوّرة لاتدرك عواقب مجازفاتها! وكانت هذه حكايتي.
وهزت يدها ملوّحة وقالت مختتمة:
- فيا بنتي هنالك آلاف الحكايات مثل هذه التي رويتها أنا وحكاية الفتاة البادينانية المنكوبة قد حدثت قديماً وتحدث حديثاً، ثمّ انّ ذوي الضمائر الميّتة والشريرين والخيّرين الطيّبين موجودون في كل زمان ومكان.
وعندها نهضت كنّتها مليحة واقفة وقالت:
- والله انّها حكاية عجيبة كأنّها فيلم سينمائي! ولكن لماذا لمْ تسرديها لي من قبل؟!
وقامت حماتها، وقالت وهي تعدّل زبونها:
- بل هي أغرب من الفيلم السينمائي!
ولبست حذاءها وقالت:
- فلأذهب لأتفقد الدرويشة الشيخزاده.
وتوجهت إلى كنّتها قائلة بهدوء:
- يحدث أحياناً أن تنام المسكينة على المصلّى.زوهكذا ترين أنّ الله ابتلى كلّ انسان بنزعة ما، وقد وهب الله درويشتنا نزعة العبادة، وهذه الموهبة ستجعلها "تدخل الجنّة دون نزع حذائها" كما يقال؛ فهي لاتتحدث عن أحد ولاتغتاب أحد، ولاتزعل قلب أحد، وهي مسكينة بريئة كأنّها فراشة، إذا أعطيتها لقمة تأكلها، وإذا لم تعطها لاتسأل عنها وهي ساكتة بكماء!

فضحكت كنّتها وهمست في أذن حماتها:
- فقط قلبها أخضر تحبّ الأخضر والأحمر!
وخرجتا من الغرفة وهما تضحكان بخفوت.
وبعد قرابة الساعتين عادت شكريّة من بيت الخالة فهيمة، حيث ذهبت لتفقد أحوال فيروز، التي لمْ تزرها منذ ليلة الواقعة؛ خشية من أن ينكشف مكانها بكثرة الزيارات. ودخلت شكريّة مطمئنة بشوشة؛ خصوصاً وقد طمأنت الخالة فهيمة فيروز أن أحداً لمْ يسأل عنها. ونزعت شكريّة عباءتها بسرعة، وقصدت مليحةخان وسألتها باهتمام:
- سيّدتي العزيزة ألمْ تتأخر شغلة ما في غيابي؟ والله كان قلبي معك بسبب الضيوف والقبول.
وضحكت مليحة خان وهي تمسح فم طفلها الرضيع في حضنها بخاولي صغير، وقالت:
- أراك تعجلين بالمواعيد، فقبولنا موعده بعد ثلاثة أيّام؟ والآن أخبريني كيف حال الفتاة والخالة وماذا حدث لهما؟
فأجابت شكريّة:
- والله يا سيّدتي العزيزة لروحي لك الفداء وضعهم جيد جداً؛ بفضل الله وفضلكما أنت ةعثمان آغا، وقد تحسّن حال فيروز واستعادت عافيتها نوعمّا. فقد غسلت الخالة فهييمة بشبه عنوة ودبّرت لها بعض الملابس، التي ارتدتها.
وابتسمت شكريّة وقالت معلّقة:
- ويحي فاتني أن آخذ لها بعض ملابسي؛ فملابس المسكينة خالة فهيمة القصيرة والنحيلة لاتناسب فيروز الفارعة القد والعريضة المنكبين!
فأكملت مليحة خان كلامها:

- صدقت والله كان المفروض أن نرسل إليها بعض الملابس، ولكن هل كان في وسعنا التفكير بالملابس؛ من فرط الخوف والتشوّش؛ إذ كلما كانن الباب يُطرَق أو يرنّ جرسه أو يرن التلفون، كنا نخال الضابط مصطحباً البوليس لتفتيش بيتنا والتحقيق معنا؟!

وتوجهت شكريّة إلى مليحة خان وقالت بخفوت:

- أتدرين يا سيّدتي أن فيروز التعيسة مرتعبة؛ بحيث لايمكن لأحد أن يذكر إسم أهلها؟! فقد كان العم درويش زوج الخالة فهيمة قد طلب منها عنوان أهلها في دهوك؛ ليذهب ويخبرهم ؛ لكي يأتي إليها أحد ينجدها، لكنها أبدت خوفها وبكت وقالت له:

- أخشى أن يستقدم زوجي البوليس إلى بيتنا لإسترجاعي ؛ فيسلمني أبي الجبان جداً إليه.

فانفعلت مليحة خان وقالت بحدّة:

- أحرق الله أباها، فلو كان رجلاً ؛ لما كان يسلّم هذه النرجسة الغضة بيد ذلك القوّاد، حتى بدون عقد قرانها عليه، بمجرّد انه وعده أن يعقد قرانه عليها في الموصل بين أهله وذويه! فهل هناك أب أو أم يرضى بهكذا وعد؟ أما كان المفروض به أن يقوق أبوها يتساءل: " لن تأتي معك إلاّ بعد عقد قرانها هنا؛ وإلاّ أليس يوجد هنا قاضي ومحكمة؟!" أو كان هو وإثنان أو ثلاثة من أقربائه أو أصدقائه يرافقونهما إلى الموصل ويحضرون عقد قرانها وزفافها. ألمْ تقل الفتاة بأنهما بعد وصولهما إلى الموصل بنصف ساعة جلب الرجل نصّابين مثله وفبركوا عقد قران زائف لهما. ثمّ لمْ يقدم للمحكمة لتصديقه. أهلك الله

أباها وأمها! ثمّ ألمْ تقل فيروز: " حين سألته: أين أبواك وذووك؟ فأجابني: سيأتون لاحقاً" لكنهم لمْ يأتوا قطعاً"
واضح جداً أن العملية هي خدعة في خدعة؛ تمكن ذلك القوّاد الباغي أن ينتزع فيروز بكل بساطة؛ ليتاجر بلحمها الطري هنا وهناك.
كانت شكريّة تنظر إلى فم السيّدة وتقول لنفسها: " كأن هذه المرأة شخصيتان مختلفتان ؛ فها هي الآن غيورة تدافع عن تلك الفتاة المغدورة وتناصرها، في حين تعامل كلّه التعيسة بكلّ خشونة وقساوة، ولاتدعها تذهب إلى النوم حتى وقت متأخر من الليل، بينما ترسل أطفالها للنوم مبكّراً. فيا إلهي ما أغرب أطوار هؤلاء البشر! وإلاّ لماذا يحبّذ ذو السلطة أن يستحوذ على كل شيء لنفسه ولبنيه، وأن ينعموا بكلّ الطيّبات، ولايفكّر بأمثالنا البؤساءالتعساء المحرومين، الذين غدر بهم الزمان؟ ولأننا نقع تحت سلطة هؤلاء تراهم يعاملوننا باستعلاء كأنما لسنا بشراً، بل نحن حجر لايتعب! أف ..شكراً لعدالتك يا إلهي! "
وعندها جاءت كلّه وعانقت شكريّة، وتوجهت إليها وقالت:
- يا فرحتي عدتِ! أنت لاتدرين كمْ أكتئب كلّما ذهبت إلى ماكن ما؛ فلماذا لمْ تأخذيني معك؟! ألمْ تعديني قبل أيّام بأنك ستأخذينني معك أينما تذهبين؟!
فقبّلتها شكرية وانقبض قلبها لها فقال لها:
- في المرّة المقبلة؛ لأن الآن عندنا ضيوف.
وقالت لنفسها: " والله لو قلت لآخذ معي كلّه إلى مكان ما؛ لحلقوا رأسينا! بل إنهم يستكثرون علينا الجلوس؛ فكيف إذا أردنا التفسّح والنزهة؟! وهؤلاء ماشاء الله من الطيّبين الشفوقين ذوي الوجدان!"

ألقت شكريّة نظرة شفقة على كلّه ومسّت رأسها وقالت:
- إذهبي يا عزيزتي؛ لئلاّ تناديك السيّدة.
وقالت مع نفسها:
- أيّتها التعيسة كمْ أنت ساذجة وفقيرة!
ومسحت شكريّة دمعاتها بظاهر كفها، وانصرفت إلى أداء أشغالها الكثيرة المتراكمة.

* * *

كان أهل البيت أجمع منشغلين مثل خليّة نحل في يوم ماقبل(القبول). كانت شكريّة شادّة رأسها ومشمّرة عن ساعديها، ومكفكفة ثوبها، ومعلّقة بحزامها خاوليّات ووصل، وهي تمسح الكراسي والطاولات والحيطان والأبواب والشبابيك وحتى السقوف..وكان هذا ديدن أهل كلّ بيت تجرى فيه حفلة قبول؛ لكي يتباهوا ويفتخروا بأنفسهم وينالوا استحسان الضيفات:

- ياه! بيتهم كمْ هو نظيف ومرتب!
- مأكولاتهم كمْ هي لذيذة!
- وضعهم كمْ هو راق!

ولذلك كانت مليحة خان تحث الجميع على إعداد كلّ شيء؛ مهما ينل منهم التعب؛ لتبرهن للضيفات مستوى بيتها الراقي، فها هي حماتها تصنع الكليجه، وها هي مليحة نفسها تصنع صنوفاً من الحلوى والبورك، وها هو زوجها العائد من السوق وقد ملأ صندوق سيّارته بأكياس الفواكه والمأكولات المتنوّعة ؛ مادامت ستأتي أم باسل غداً عقيلة الوزير وهو يعقدعلى حضورها آمالاً كبيرة. فكان هذا ينادي كلّه وتلك تطلب منها نقل الأكياس، وتدفعها أخرى لتذهب وتعنى بالطفل الرضيع في المهد. وهكذا كانت

القيامة قائمة...! بينما كانت العمة الشيخزاده أم المسبحات المتدليّة من رقبتها متعجبة ومستغربة من خبصة أهل البيت ولاتدري العلّة؛ لأنهم ماكانوا يخالطونها كثيراً، بل تركوها وشأنها تصلّي وتتلو أدعيتها، ومع ذلك كان الفضول يدفعها لتعرف كنه هذا الحشر!

كانت كلّه تتقافز وتتراكض هنا وهناك وهي محتارة تنفذ أمر هذه أو تلك؛ حيث كانت ثلاث – أربع ينادين عليها دفعة واحدة، وخاصة جرا خان الكسولة، التي كانت تحوّل أوامر والديها إليها إلى كلّه مشفوعة بعبارات الزجر والشتائم لتنفذها بسرعة! وصادف أن مرّت كلّه أمام غرفة العمة الشيخزاده فنادتها وأشارت لها: "تعالي" فولجت الغرفة، وبعدما مسحت بكمّ ثوبها مخاطها الراشح من أنفها بسبب البرد، قالت:

- تفضلي ماذا تريدين؟

وهي من العبارات التي كانت شكرية قد لقنتها. ووضعت العمة يدها على فمها الحاوي طقم الأسنان، الذي لمْ تتعوّد على الكلام به بعد، فسألت كلّه مفأفئة:

- كلّه عزيزتي لماذا كلّ هذه الخبصة؟ من سيأتي؟!

فأجابت كلّه ببشاشة متقافزة فرحاً:

- وكيف لاتعرفين؟! ألمْ تخبرك مليحة خان عندها ضيفات قبولخانه غداً ؟!

فلم تفهم كنه القبولخانه، إنما تصوّرت العمة مجيء ضيوف ذوي علاقة بشؤون ابن أخيها؛ فسارعت تقول:

- لك الحمد والثناء يا ربي .زاد الله رزقكم..إذهبي يابنيّتي إلى شغلك؟

وتلت بضع أدعية ونفختها حواليه، ثمّ قالت مع نفسها: " من حسن الصدف أن هذا القبولخانه يقام قبيل رحيلنا فنراه ونعرف ما هو ثمّ نعود"

وفي اليوم التالي ، كان أهل البيت أجمع: عثمان آغا، زوجته، والده، والدته، بنوه وبناته حتى الشغالتان شكري' وكلّه، يبدون وكأنهم مكويّون كوياً! وكانوا مصطفين كالعسكر ينتظرون قدوم الضيفات. كانت كلّه المسكينة لاتجرؤ على أن تسعل أو تعطس أو تتنفس براحتها؛ بسبب تهديدات السيّدة مليحة، لكن شكريّة لكبر سنها وجرأتها وخبرتها الطويلة بهذه الأجواء وطباع الناس الأنانيين المتفاخرين؛ لمْ تكن تعير أيّ أهميّة لهكذا نصائح وتهديدات ، رغم كونها مخلصة وقديرة نشطة في العمل.

وبعد الظهيرة، راحت السيّارات تتقاطر وتصطف في الزقاق، وأخذت الضيفات المرتديات أرقى الأزياء والمتزوّقات المتمكيجات على أربع وعشرين حبّة يدخلن بيت القبول وهن يتضاحكن ويقهقهن؛ بحيث كان الرائي الجاهل بالحقائق يتصوّرهن أسعد المخلوقات البشريّة، لا، بل خلقت الدنيا من أجلهنّ لهنّ، بينما تعاني أكثريتهنّ من المشكلات العائليّة مثل زوجة الضابط السالفة الذكر، إذ كان زوجها الضابط الكبير بكل نجماته وأنواطه ووجود زوجته وطفليه سافلاً دنيئاً يتسلل في الليالي ليغتصب بوحشيّة فيروز المغلوبة على أمرها، والتي كان قد استقدمها على انها شغالة، في حين كان قد اشتراها من قوّاد دنيء.

وكذا الحال مع زوجة طبيب كانت تتظاهر أمام الناس وهؤلاء النسوة بأنها محظوظة وسعيدة؛ بحيث كنّ يحسدنها

بصفتها زوجة طبيب مشهور وثري يصطحبها كلّ في سفره إلى أوربا، ولكنها لمْ تكن في الحقيقة إلاّ حاضنة لأطفاله وربة بيت وشبه قوّادة له! وكانت المرأة نفسها تعرف هذه القيقة جيداً، بل كان أخوها أو أختها ينبهانها كيف ترضى بمعاملته لها كجارية؛ بحيث بلغ حدّ توسّلك إليه ألاّ يتلفت يمنة ويسرة للنظر إلى النساء وهو يقود السيّارة: " لاتنشغل بالنظر أثناء السياقة؛ لئلاّ تحدث لنا حادثة، وأنا بنفسي سأنبهك إلى وجود أيّ امرأة جميلة! فتناديه: أنظر يا أبا شبول يميناً إلى الفتاة الرائعة القادمة وهي ترتدي بنطلون" ولذا كانت أختها تغضب عليها وتتساءل: " هل أنت زوجة بحق وحقيقة، أم جارية وسمسارة لزير نساء لابارك الله فيه؟!" وكانت تجيبها: " والله خلّي على راحته؛ مادمت أنا وبيتي وأطفالي في رغد وهناء لاينقصنا أيّ شيء ..نأكل ونشرب ونلبس كما نشاء؛ وليظلّ أبو شبول يتلهف بعينيه الجائعتين المشبوبتين على هذه وتلك، ولايحصل إلاّ على العار!"

كانت زوجة الطبيب هذه تتظاهر بلامبالاتها إزاء سلك زوجها الشائن، لكنها في الحقيقة كانت قد أجبرت نفسها على التكيّف معه؛ لضمان رفاهيّتها، وهي ليست مثل امرأة أخرى هي زوجة ثري صاحب شركة كبيرة، تبدو في منظور النسوة الأخريات زوجة مليونير، بينما كان المليونير البيكَ لايشتري لها ثوباً إلاّ بعد سبع معارك بينهما! وتنزهق أرواح أطفاله حتى ينالوا منه ديناراً واحداً! فهو بخيل دنيء أبوه فلس وأمه فلس! ولاتكف زوجة المليونير عن حضور القبولات وهي لاتملك غير ثوبين تخرج بهما؛ فصارا مثار هزء وسخرية قريناتها

اللواتي سمّين ثوبيها بالزيّ الرسمي أو الزيّ المدرسي الموحّد!
فإذا كانت هكذا نسوة موجودات بين هؤلاء الثلاثين-الأربعين إمرأة؛ فكمْ توجد من أمثالهن بينجمهرات النساء هنا وهناك؟! بل بحكايات وقصص وحوادث أغرب وأعجب، لاتقتصر على غدر الرجال، بل تشتمل على غدر النساء ومكائدهنّ أيضاً! فهناك نسوة سيّئات الأخلاق يقترفن بكل صفاقة ووقاحة أشنع الموبقات والخيانات رغم كونهن صاحبات فريق من الأولاد الكبار والبنات اليافعات!
على كلّ إنتهت تلك الضيافة مساءً على خير وسلام.
كانت الست باكزة جارتهم، قد جاءت مبكّرة لمساعدة بيت الآغا عثمان، بل كانت تساعدهم أيضاً في اليوم السابق للقبول في صنع الحلويات، إنتهزت فرصة مغادرة الضيفات، فطلبت بإشارة إلى شكريّة أن تأخذها إلى العمة الشيخزاده لكي تتلو عليها بعض الأدعية؛ فأخذتها إليها وجلست بين يديها ورمت نفسها مقبلة يديها، وعيناها مغرورقتان بالدمع وهي تقول:
- والله عمتي العزيزة أخذت أدعيتك بالتحقق..
فعانقتها العمة، وهي تضغط على أسنانها التي لم تتعوّدْ عليها بعد، وقالت:
- بنيّتي إن شاءالله سيتحقق مرادك، ليس بأدعيتي،بل بأدعية الأولياء؛ فما أنا سوى درويشة تتضرّع إلى الله العظيم ليحقق ماتبتغينه.
كانت الست باكزة تحب شاباً من جيرانهم وكان يبادلها الحب، ويريد الزواج منها، لكن أمه كانت العقبة الكأداء، إذ

كانت تقول له: " كيف تتزوّج من تلك العانس العجوز؟!"
في حين كانت باكزة تكبر الشاب بثلاث سنين فقط!
وفي الليل بعد الإنتهاء من كل الأشغال، جلس جميع أهل البيت في الهول، مع أبويّ عثمان آغا، لأنهما سيغادران غداً مع العمة الدرويشة إلى السليمانيّة ، وبالطبع طغى حديث الضيافة، فقالت حماة مليحة ضاحكة سائلة إيّاها:
- رغم اني لاأجيد العربية، لكن لماذا كانت الضيفات يقهقهن ويتمايلن يميناً ويساراً، ويلهجن باسم (مدير المال)؟!
فضرت كنّتها صدرها ونظرت حواليها حيث كان زوجها وحماها موجودين وقالت:
- إنها كوميديا الموسم!
وراحت تحكي بشوق وحرارة:
- روتها تلك المرأة، حيث زارت بيت حميها في بعقوبة، وقالت: " حين كنت هناك، إنتشر في أوساط عوائل الموظفين خبر ورود عائلة (مدير مال) أبله إلى بعقوبة، ومن العادة في تلك المدن الصغيرة ، حين يُنقَل موظف ويأتي آخر بدله، تقوم عوائل الموظفين بزيارة عائلة الموظف القادم للترحيب بها، وهمناك من يدعوها إلى وليمة...ولذا تجمعت بضع عوائل لزيارة عائلة مدير المال للترحيب بها، وكانت أكثريتها متلهفة لرؤية الأبله والتسلّي بلقائه"
وتوجهتمليحة إلى حماتها وقالت:
- كانت المرأة الراوية ضمن الزائرات، وقالت شاهدنا العجب العجاب؛ ممّا يضحك أهل العزاء! فلمّا طرقنا الباب ، فتحته شابة في العشرين من عمرها، وحالما شاهدتها

الزائرات تيقنّ من وجود مجنون في العائلة، حيث كانت تبدو خارجة للتو من الحمام وقد عصبت رأسها ليس بطرحة بل بشرشف من كبرها، وكانت ترتدي ثوباً طويلاً فضفاضاً من قماش البازه السميك، وفوقه جاكيت صغير ضيّق جداً، وكانت تبدو مرتجفة من البرد، رغن ان ذلك المساء لم يكن بارداً رغم سقوط المطر..وأدخلتنا الفتاة ودلتنا بالإشارة إلى غرفة الإستقبال، وقالت: " إجلسن هنا؛ حتى أخبر أمي فتأتي.." وجلسنا ، وكانت أكثرية الكراسي مكسورة، بعضهما بثلاث قوائم، وبعضها بقائمتين، ووضعت تحتها طابوقات، وفيها مدفأة مطعوجة بلا غطاء، ومكتبة مكسورة الزجاج تحتوي على بضعة كتب، وكانت إحدى قوائم البوفية مكسورة، ووضت تحتها طابوقة ، وتحتوي على بضعة صحون ومواعين فرفوري مكسورة؛ كما لو أن السيّارة التي نقلت الأثاث قد إنقلبت من جبل فتحطم كل شيء! ثم جاءت ربة البيت وكانت تبدو أيضاً بأنها خرجت منذ ساعة من الحمام ، لكن منظرها كان مقبولاً، وبدت إمرأة ذات معرفة وإدراك، وقد رحبت بنان بحرارة وحميميّة، واعتذرت في الحال عن تحطم كل حاجياتهم عند تنقلهم إلى هنا من الشامية التي تقع في جنوب بغداد، وبدأت المرأة تتحدث عن حاجياتهم المكسورة، وهي تستخرج من حين لآخر شيئاً مكسوراً من تحت كرسي أو قنفة..ثمّ جاءت بنت أخرى لهم شبيهة بالأولى بمظهرها مشدودة الرأس ولابسة دشداشة، وهي تحمل صينيّة عليها استكانات شاي نصفها منسكب في مواعين الشاي، واعتذرت : " أرجوالمعذرة فقد انسكب الشاي حتى وصولي هنا لأن حوشنا كبير والمطبخ في

الطرف الآخر، بل وامتلأت الإستكانات بماء المطر لأن الحوش مكشوف ، ونحن بطبعنا نحب المنازل القديمة ولانحب المنازل الجديدة المقبطة الخانقة" وكادت الزائرات أن يتفجرن بالضحك، لكنهن ضبطن أنفسهن بصعوبة بالغة، وكن يشعرن في الوقت نفسه بالشفقة على هذه العائلة التي تحطمت أغراضهم جمعاء. ثم جاءت بنت أخرى جالبة كليجه، وكانت جيدة وبدت أعقل من السابقتين حيث كانت قد غطت الكليجه بجريدة، وإذ رأت أمها الزائرات يتبادلن نظرات الإستغراب؛ قالت: : حمداً لله عندنا بنات كثيرات ست، ولكن عندنا ولد واحد اسمه محمد" فدعت الزائرات الله أن يحفظه ويسعده. ثم جاءت بنت أخرى لإسترجاع الإستكانت الفارغة، وبعدما خرجت بقليل، حدث لغط وصخب في الطارمه ؛ بحيث خافت الزائرات ونهضن ليرين ما يحدث، فإذا بهنّ يشاهدن فتى يرتدي دشداشة ويعتمر عصابة رأس ضخمة، ويحمل زنبيلاً، وقد بطحته البنات الست أرضاً وانهلن عليه بالضرب؛ فانتفضت الزائرات وصحن:" وَيْ وَيْ بسم الله ماالذي حدث؟!" فأجابت الأم بكل برود وبصورة طبيعية وهي تبتسم للضيفات: " لاشيء يحدث..انه العزيز محمد يريد الذهاب إلى الدكان القريب لشراء الفواكه، وتوصيه أخواته بما ينبغي أن يجلب..وتبقى الدكانين مفتوحة هنا حتى مساء متأخر"

فقال حمو مليحة خان وهو يضرب كفاً بكف ويضحك:

- والله لو كان هذا الكلام صحيحاً ؛ فهو فيلم سينمائي وليس مجرد مزحة.

فقهقهت كنّته وقالت بهدوء:

- والله يا عمّي أقسمت المرأة بالقرآن على صدق كل حرف فيما روته.
وضحك عثمان آغا أيضاً من أعماق قلبه وقال:
- والله أصاب والدي فهذا فيلم سينمائي، وما أسهل تحويله إلى فيلم!
فقالت مليحة في الحال:
- والله قد لايصدق أحد ويقول: هل يعقل أن يوجد مثل هؤلاء الناس في هذا الزمن وخاصة بين الموظفين؟!
وتوجهت حماتها لطفية إلى الجميع وقالت:
- على مهلكم حتى تكمل الحكاية كلها.
فاستطردت مليحة في كلامها :
- ثمّ قالت المرأة: " وبعد دقائق سمعنا صوت باب المنزل وعلت طبطبات هرولة؛ فعلمنا بعودة محمد من السوق، وبعد فترة من تجاذب الأحاديث حول التنقل بين المدن، وتحدثت إمرأة - إمرأتان عن شجونهما في هذا المجال، دخلت صينيّة من الفواكه والتهمتها الزائرات، لكن ليتكنّ كنّ هناك؛ لترين بأمّ عيونكنّ منظر تلك الفتيات الضخمات اللابسات الدشاديش بعصابات رؤوسهن الكبيرة كيف كنّ يتصرّفن ويوزعن الفواكه! وانتهى كلّ شيء على أيّ حال، ونهضت الزائرات بنيّة المغادرة، وعندها انبرت إحداهن وكانت عانساً عجوزاً ومنكتة ساخرة الطبع، وقالت : (بودّنا أن نطلع على بيتكم الكبير المريح) فأجابتها ربة البيت:(على العين والرأس..تفضلن..) "
وضربت مليحة صدرها بيدها وقالت:
- هذا المشهد أحلى المشاهد، فقد قالت المرأة الراوية: " لمّا خرجنا من الغرفة، كان المطر ينهمر فأسرعنا نقطع الباحة

الواسعة إلى الطرف الآخر، يقع المطبخ والحمّام الذي كان مضاءً، وبدا أن ثمة من يغتسل فيه..واقتادت أم البنات الزائرات إلى الغرف وقالت : (هذه أوّلاً غرفتنا أنا وأبو محمد، لكنها غير مرتبة بصورة جيدة لحد الآن..تفضلن بالدخول) وحالما دخلنا، تقافزت وطارت بضع دجاجات فزعاً مطلقة القأقآت؛ فغطّت النسوة وجوههن ورؤوسهن بأيديهنّ خوفاً وكانت جاثمة على قضبان حافة سرير النوم عند دخول الزائرات، فقالت أم محمد: (أبو محمد يحب هذه الدجاجات كثيراً، والليلة تمطر، ولمْ نتدبر لها قناً أو مكاناً لحد الآن؛ فجلبها إلى غرفتنا) فتساءلن : (وكيف يجوز ذلك ؟ألا تذرق على الفراش وتوسخ الغرفة؟!) فأجابت : (والله أبومحمد يحب دجاجاته أكثر من بناته وابنه! وقد رافقتنا من الشامية إلى هنا، وكانت فراريج وربّاها بنفسه) فلمْ يبق ما تقوله النسوة سوى الإسراع بالمغادرة والإستغراق في الضحك والقهقهات وهن يتراكظن تحت المطر في الأزقة في الظلام، وكل واحدة تتساءل: (إلهي أيوجد مثل هؤلاء البشر وبقون لحد الآن؟!)"

* * *

في مساء متأخر، وكان الجو بارداً، وتهبّ ريح باردة والمطر ينهمر مدراراً. كان الأطفال وأبوهم قد عادوا إلى البيت وكلّ منهم منشغلاً بشأنه، وكان يختلط لغط الأطفال وتهديد الأبوين لهم بالسكوت وتحضير الدروس. كان الولد الكبير والبنت الكبيرة مشغولين كالعادة بمهاتفة الأصدقاء والصديقات، فلمْ تكن جرا خان تترك التلفون، وأخوها يلح عليها بإنهاء اتصالاتها؛ على انه بحاجة ماسّة إلى الإتصال

بهذا الصديق أو ذاك؛ فكان يندلع بينهما الشجار والإشتباك بالأيدي والتناطح. كانت كلّه مثل كرة القدم يركلها كل منهم ويتقاذفها هنا وهناك، ينادي عليها الولد الكبير وتصفعها البنت الكبيرة، ويزعق في وجهها الولد الأوسط، وهي تنتظر متى يكفون عنها لتلعب بأوراق البباز مع جيمن التي في عمرها. لمْ تكن شكريّة متواجدة في البيت، إذ كانت في زيارة للخالة فهيمة وفيروز اللتين طلبتا منها الحضور، فكان الآغا والسيّدة متلهفين لمعرفة ماحدث.

ورغم كل اللغط والضجيج والصخب الذي يحدثه الأطفال في البيت، كانت مليحة خان تشعر بالفراغ الكبير الذي تركه رحيل حماتها وحميها والعمة أم المسبحات في الرقبة، إلى السليمانيّة. فقالت لزوجها:

- أوّاه! مكانهم خال!

وضرب زوجها كفاً بكف وقال:

- آه! لقد أمسى بيتنا كالطاحونة الساكنة المقطوع عنها الماء..فعلاً مكانهم خال، والآن عمّ الفرح بيتهم لعودتهم، بينما نفتقدهم نحن محزونين. حقاً ما أعجب الحياة! فكلّما يزرنا ضيف عزيز؛ أتصوّر رحيله فينقبض قلبي؛ لذلك فإن إنتظار من يأتي أحلى من وصوله.

فقاطعته مليحة بشيء من الغضب مغيّرة الحديث متسائلة:

- يا ترى إلى متى يبقى بيستون ابن عمك عندنا؟!

فاندهش زوجها من سؤالها فتساءل:

- ولماذا؟ أيّ سؤال هذا؟! هذا بيته وكما يشاء، ولايضايقنا،فهو يأتي ويذهب أحياناً دون أن نشعر بوجوده، وقد أتى هذه المرة لشؤون دكانه، وليس للبقاء هنا، أو أن أموره تتعطل بدوننا!

فأجج جوابه المطوّل غضبها أكثر؛ فرفعت صوتها دون مراعاة لطفلها الرضيع النائم، قالت:
- أنت غير متواجد في البيت فلاتدري بما يحصل فيه؛ فشكريّة المجنونة تغازل بيستون جهراً، فهذه المجنونة الملتهبة حالما يزرنا ولد أو رجل تكاد أن تحمله على ظهرها، وتدور حواليه، وتبالغ في خدمته، وتجبره على الأكل والشرب، مهما شكر واعتذر..بل تلتصق به كاللبّان، وبالأخص بيستون الذي خلب لبّها فشرد ذهنها؛ بحيث سقطت من يدها مساء أوّل أمس صينية فيها استكانتا شاي وهي في طريقها إلى عمي وعمتي بمجرد أن لمحت بيستون وهو يدخل البيت!
فازداد زوجها عثمان استغراباً وتعجباً من كلام زوجته؛ فتساءل:
- لخاطر الله يت بنت من أين بيستون من هكذا صنف؟! بالله لاتتفوّهي بهكذا كلام، فلو سمعه بيستون؛ سيذهب حياؤنا، وسوف لن تطأ قدمه عتبة باب بيتنا أبداً، فقد ألححت عليه أن يأتي إلى بيتنا، وإلاّ فإنه كان يفضل النزول في فندق في مركزالمدينة " فهو أفضل لي ؛ لقربه من مكان أشغالي، أمّا بيتكم فهو بعيد، ويزداد تأخري عن مواعيدي ولقاءاتي بسبب الإختناقات المرورية" كما برّر لي، ثمّ ان شكريّة البائسة هي بشوشة ومجاملة حميمة بطبيعتها مع الجميع، وهي مخلصة طاهرة القلب ومضحية أنظري لما فعلته من أجل تلك الفتاة البادينانية، وكيف كانت مستعدة لدخول السجن من أجل إنقاذها من براثن

الضابط السّافل؛ فلماذا تظنين مثل هذه الظنون وأنت إمرأة متديّنة وذات وجدان؟!
فتضاعف إنفعال وغضب مليحة خان وضربت كفاً بكف وصاحت في وجهه:
- إذنْ فأنا لاوجدان عندي ولا دين وأتهم الناس زوراً وبهتاناً.
وهزت يدها ملوّحة وهي تقول:
- قسماً بالله أنا لاأفتري، وليت حماتي كانت هنا الآن لتسألها: لماذا سقطت الصينيّة والإستكانات من يدها؟!
فاحتدم انفعال عثمان المستغرب وتساءل:
- هل أن بيستون مراهق؟! هل هو بلا زوجة وأطفال؟! أليس هو أب لثلاثة أطفال؟! مثل هذا الكلام كفر حتى لو قاله آخرون.
فضحكت مليحة مستهزئة ساخرة وهي تجيب زوجها:
- ها خطيّه ! إنك أعرف الناس بأخلاق بيستون؛ وإلاّ من ذا روى لي ما حدث له يوم ذهبتما إلى المطار، وكيف كاد إثنان من العرب يتشاجران معه ويضربانه؛ لتحرّشه بأخت أحدهما؟! وكادا أن يستقدما البوليس؛ ويذهب حياؤك أنت أيضاً.زفقل لي من حكى لي هذه الواقعة؟!
فأجابها عثمان بحدة:
- ومتى كانت الحكاية كما ترويها يا بنت؟! ومتى حكيتها هكذا؟! أشهد بالله قلت أن الفتاة كانت تركز النظر علينا وتغمز وتؤشر وتتحرش بنا عبر الزحام حيث كنا ننتظر عودة بختيار شقيق بيستون..فبنات هذاالزمان هن اللواتي يتحرّشن بالفتيان أكثر، وغدا الفتيان أشد حياءً وخجلاً منهنّ! هكذا حكيت الواقعة وإذا بك سويّت الحبّة كبّة!

فعلّقت مليحة وهي تنهض:
- هلمّ ورقّعْ له الخرقَ و صرْ محاميه ؛ مادمت شريكه!
وخرجت بسرعة من الغرفة ولمْ تنتظر جواب زوجها الذي كان سيتسم حتماً بالعنف؛ لأنها إفترت عليه بهتاناً، في حين كان رجلاً محترماً حميد الخلق ونزيهاً ذا سمعة طيّبة بين الناس، ولكن بيستون كان مالح العينين قليلاً إن واتته الفرصة!
كانت شكريّة قد عادت من بيت الخالة فهيمة، وتوقفت في الطارمة أثناء هذه المشاجرة بين سيّدها وسيّدتها، وسمعت بعض عياطهما وكلامهما وهي مذهولة مبهوتة ، وإذا بكّله تهرع إليها وتحتضنها، فسألتها شكريّة المضطربة بهمس:
- ماذا دها السيّد والسيّدة؟ لماذا يتشاجران؟!
فشهقت مخاطها وهمست في اذن شكريّة:
- يتكلّمان عنك وعن كاكه بيستون، والصينيّة التي وقعت من يدك والإستكانات التي انكسرت وجمعت أنا قطعها المكسورة معك.
وأرادت كّله الإسترسال، فلطمتها شكريّة لطمة خفيفة، ونهرتها بغضب:
- كفى كفى يا شقيّة كأنك مبتلعة مسجّلة!
وإذا بمليحة خان حاضرة على رأسها، وحاولت شكريّة التغافل والتظاهر بأنها وصلت للتو؛ لذا نزعت عباءتها ووضعتها على ساعدها الأيمن، وخاطبت سيّدتها ببشاشة:
- حمداً لله يا سيّدتي لمْ يحدث شيء سيّيء ؛ وقد طلبتا حضوريللتعرّف إلى أم فيروز وذويها القادمين من دهوك.
فقاطعتها مليحة خان وهي تزعق في وجهها:

- لاأريد أن أعرف أيّ شيء، وانكسرت رقبتك مع رقابهم!
وخرجت إلى الحوش ومضت نحو الحمّام. وسارعت شكريّة وكلّه المذهولتان المتشوّشتان إلى غرفتهما الصغيرة.
طغى الصمت على البيت بضع ساعات في ذلك النهار، فحتى أطفال عثمان آغا لمْ يجرؤوا على تمتمة، وكانت كلّه تشرأب بعنقها أحياناً ، ويدعوها الأطفال إليهم بالإشارات.
وبعد فترة من الصمت نادت جرا خان على كلّه بخفوت وتوجهت بوجه عبوس إليها وسألتها:
- لماذا يتشاجر أبي وأمي؟ ما ارتكبت؟ ماذا كسرت هذه المرة؛ فقد سمعت عبارة أسقطت وكسرت؟!
ولمْ تنتظر منها، وإنّما صفعتها بكلّ ماعندها من قوّة!
فبرطمت كلّه طفرت الدموع من عينيها، وهمّت بالكلام، لكن جرا خان دفعتها بقوّة وهي تقول:
- إغربي عن وجهي.. كسر الله رقبتك.
فركضت كلّه خوفاً وهي تنتحب إلى الغرفة، حيث احتضنتها شكريّة متسائلة:
- لماذا؟ لماذا؟ ماذا حصل؟ أسكتي يا بنيّة لاتعلي صوتك.
وضعت كلّه يدها على رأسها وقالت:
- ضربتني جرا خان.
ثمّ حكت لشكريّة ماحصل.
فوضعت شكريّة بحنو رأس كلّه على صدرها،وتمتمت:
- كسر الله يدها..صدّق المثل " يستأسد على البرذعة ولايجرؤ على الحمار"!

وظل وضع البيت مأزوماً في المساء أيضاً، رغم استئناف أطفال الآغا لحركاتهم وألاعيبهم هنا وهناك، وأداء شكريّة لأشغالها بصمت وهدوء، ومن ثمّ عادت إلى غرفتها. وحلّ الليل، ونام كل واحد في فراشه، وبالأخص كلّه التي نامت مبكراً جداً بعكس عادتها في الليالي الماضية، أمّا شكريّة فقد ظلّت تتقلّب في فراشها وتفكّر في شجار السيّد والسيّدة، ولاتبرح عبارات مليحة خان تنهال على رأسها كضربات هراوة!" لاأريد أن أعرف أيّ شيء، وانكسرت رقبتك مع رقابهم! " وتخاطب نفسها: " ماذا دها هذه المرأة؟! مالي و بيستون؟! ومتى وقعت الصينية والإستكانات بسببه؟! هذا جزاء إحساني، إذ ركض إبنها أمامي؛ فخشيت أن يصطدم رأسه بالصينيّة فينسكب الشاي الحار عليه فيتأذى؛ لذلك تحاشيت الإصطدام به وسقطت الصينيّة بسبب اضطرابي وفقدان توازني. إلهي لماذا هؤلاء الناس لاوجدان ولادين لهم إلى هذا الحدّ؟! ماعلاقتي ببيستون؟ أنا التعيسة المشمّرة ساعديّ دوماً والمنغمرة في العمل، وتفوح مني روائح السمن والبصل والصابون، ولامجال لي لأغسل رأسي وأغتسل جيّداً؛ لكثرة ما ينادون عليّ ويسخرونني..وبعد كل هذا أتراني أغازل ذلك الرجل؟! وحتى لو فرضنا صحة هذا البهتان؛ لماذا الكيل بمكيالين؟ لماذا يكون الحب حلالاً لهن ولهم وحراماً علينا؟! ألسنا بشراً مثلهن ومثلهم ولنا قلوب تنبض؟ أليست لنا أحاسيس ومشاعر ورغبات وأمنيات؟ هل نحن مخلوقات من الحجر والخشب؟! هل أن أدمغتنا متحجرة؟! أمْ وجب على الفقراء والبؤساء أن ينسحقوا تحت أقدام الأغنياء والمتسلطين، الذين يكون كلّ شيء حلالاً لهم؟!

باتت شكريّة في غاية الحزن ولأسى، وأجهشت في البكاء وظلت تنشج في فراشها طويلاً، ثمّ قررت مع نفسها قراراً حاسماً:

- فلينجل الليل ويصبح الصباح يا إلهي ...

ونامت وعيناها طافحتان بالدموع، ثمّ استيقظت فجراً وأيقظت معها كلّه، وسارعت بإنجاز الأشغال المعهودة كافة، ثمّ لملمت وحزمت أغراضها وحملتها، وحملت كلّه أيضاً صرّة حاجياتها، وراحت الإثنتان إلى مليحة خان، وزوجها الذين كانا يتناولان الفطور، وهما يتضاحكان ويقهقهان، كأنهما لم يمسهما مطر أو ريح، وأصبح شجارهما خبر(كان) فتوجهت إليهما شكريّة بالكلام:

- سيّدي العزيز وسيّدتي العزيزة دام بيتكم معموراً، أمّا نحن فيجب أن نغادره!

فجحظت عينا مليحة خان ووضعت استكان الشاي على الصينية ونهضت على واقفة وتساءلت:

- ماذا تقولين؟ إلى أين تذهبين؟! وإلى أين تأخذين كلّه؟! أن تغادري فهذا شأن يخصّك ، أمّا كلّه فليس من حقك أن تأخذيها، ثمّ إنك لماذا تتركينا؟ ماذا حدث؟ وحتى لو قررت المغادرة؛ فيجب أن تنتظري لمّا نستقدم غيرك.

وجنّ جنون مليحة خان، وهي تتوجه إلى شكرية تارة، وتارة أخرى تهاجم زوجها الساكت:

- لماذا لاتنطق؟ كيف تتركهما تذهبان؟ ماذا سيكون مصيري؟ من يؤدي هذه الأشغال؟ من يقدم لنا الخبز والطعام؟ من يكنس وينظف البيت؟ من يغسل ملابسنا ويكويها؟

وفكّرت كيف يمكن أن تفتخر وتزهو بنفسها بين قريناتها، وتتباهى بأوامرها المنفذة من قبل الخادمتين؟
وكادت مليحة أن تغيب عن وعها من هول الصدمة.
وكانت شكرية و كلّه تنظران إلى فمها المزبد ولا مجال لهما لقول أيّ شيء.
فاستجمعت شكريّة قواها وقالت:
- سيّدتي العزيزة أشكركم جزيل الشكر وعمّر الله بيتكم إذا أعطيتموني أجرتي الشهريّة، وعمّر الله بيتكم حتى وإن لم تعطوها؛ إذ لابدّ من أن أغادر لأنني سأتزوّج واليومسيعقد قراني في المحكمة.
فصرخت مليحة:
- و إلى أين تأخذين كلّه؟ وأي حق لك في اصطحابه؟!
فأجابتها شكريّة بمنتهى الهدوء:
- لأنني سأتزوّج من والد كلّه وسنعود إلى خانقين، حيث حصل على عمل جيد.
فانفعلت السيّدة وكادت أن تقفز وتطير في الهواء وتوجهت إلى زوجها:
- ألمْ أخبرك بأن أبا كلّه كلّما يأت إلى هنا لزيارة ابنته؛ يتهامس مع الخانم شكريّة، التي تنشغل بتقديم أطيب المأكولات إليه؛ فكثف زياراته، إذ كان من قبل يأتي كل شهرين، فغدا يأتي أسبوعيّاً، بل كان بالأمس هنا!
فقالت شكريّة بهدوء:
- والله يا سيّدتي العزيزة، لقد إتفقنا منذ أولى لقاءاتنا؛ فهو رجل جيد وطيب ومهندموشاب ولايكبرني عمراً أكثر من خمس سنين، وأنا معجبة به، لاسيّما وانني أحب ابنته كثيراً كأنها إبنتي.

فعانقتها كلّه وقالت بفرح ومرح:
- والله أحبك أنا أيضاً
وعندها سقط في يد مليحة خان فركضت كالمجنونة نحو جهاز التلفون وهي تعيط:
- سأستدعي البوليس
فضحكت شكريّة وقالت:
- ولماذا سيّدتي العزيزة؟ ماذا ارتكبت؟ هل سرقت شيئاً لاسامح الله؟!
وعندها فتحت شكرية وكلّه صرر حاجياتهما وبسطتا الأشياء أمام عيون السيّدة والسيّد ، ثمّ لملمتاها بسرعة وحزمتا الصرر، وسارعتا بالخروج من البيت، وكانت شكرية تمسك يد كلّه عند عبور الشارع، ومن ثم توارتا عن الأنظار تدريجياً...واشتبك الزوجان من جديد؛ لأن مليحةخان تهوّرت وخرجت عن طورها وأرادت استدعاء البوليس!

كَلاويز
لندن
1987/7/4